القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين • مايو - يونيو 2008

ملف العدد

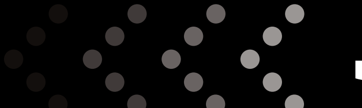
؟

- أزمة الغذاء والحلول المكلفة
- دور البشر في حياة الأفكار
- العالم من دوننا!



العدد 3
المجلد 57

قافلة الأبحاث



تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً غرضه إشراك الباحثين الراغبين، لا سيما طلاب الجامعات وطالباتها، بأبحاث ميدانية معمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم. هدف هذه الخطوة هو كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي وتحقق الشمول والإحاطة بزوايا الموضوع المطروح كافة، لتقديمها في النهاية على شكل مواد صحافية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي .

للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تعيين المهلة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستصرف مكافأة الباحث حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتّابها.

صورة الغلاف

السؤال: عامل حاسم في تطور الإنسان وتاريخه وفكره. حتى في الحياة اليومية هل يمكن أن نتخيل إنساناً من دون سؤال؟ علامة الاستفهام هي ملف هذا العدد.

المحترف السعودي

القافلة



الناشر
شركة الزيت العربية السعودية
(أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

المدير التنفيذي لشؤون أرامكو السعودية
خالد إبراهيم أبو بشيت

مدير العلاقات العامة
زياد محمد الشيحة

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوَّا

مدير التحرير
محمد أبو المكارم

سكرتير التحرير
عبود عطية

سكرتير تحرير مساعد
د. فكتور سحاب

قافلة الأبحاث ومكتب جدة
فاطمة الجفري

مكتب بيروت
رولان قطان

مكتب القاهرة
ليلى أمل

أمريكا الشمالية
أشرف إحسان فقيه

الإنتاج والموقع الإلكتروني
طوني بيروتي

المخرج المنفذ
حسام نصر

الصور الفوتوغرافية
أنور الخليفة

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع التريكي

ردمد ISSN 1319-0547

محطات العدد

مايو - يونيو 2008
جمادى الأولى - جمادى الآخرة 1429

قضايا 12–23

طاقة واقتصاد 24–35

بيئة وعلوم 36–48

الحياة اليومية 57–69

الثقافة والأدب 70–88

الملــف 89–104

الفاصل المصوَّر 49–56

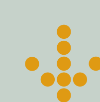
توزع مجاناً للمشتركين
- العنوان: أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa

- الهواتف: رئيس التحرير 7321 874 3 966+
فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

1 قضايا

في إطار مواكبتها للشأن الحياتي اليومي، تناولت «القافلة» في مستهل هذا العدد قضية ارتفاع أسعار المواد الغذائية الذي لاحظه الجميع، والمندرج في إطار أزمة غذاء عالمية أدت في بعض البلدان الفقيرة إلى سلسلة من الاضطرابات الاجتماعية. ويتضمَّن عرض هذه القضية العوامل التي أدت إلى ارتفاع أسعار السلع الأساسية، وذيوله، والآفاق أمام الحلول المحتملة لهذه الأزمة.



أما «قول في مقال» فيتناول جانباً من قضية الترجمة يتعلَّق بالنوعية المتدهورة التي آلت إليها في بعض الموضوعات، ويعرض لما يمكن أن يكون للترجمة السيئة من دور خطر في تجريد عمل ثقافي من مضامينه جملة وتفصيلاً، بالعودة إلى مثل محدد استقاه الكاتب من أداء إحدى الفضائيات العربية في هذا المجال.

2 طاقة واقتصاد

وقد يفاجأ القارئ في باب الطاقة والاقتصاد بتناول «البطارية» هذا القمقم الصغير الذي يحتوي على الطاقة في قالب لم يعد بإمكان الحياة العصرية أن تتخلى عنه. فتحوَّلت صناعة البطاريات إلى صناعة عالمية لا تقل أهمية عن باقي أنماط صناعة الطاقة، خاصة وأنها تتجه إلى تعزيز مكانتها منذ سنوات قليلة بوتيرة أسرع بكثير مما كانت عليه طوال القرن العشرين.



أما الموضوع الثاني في المناخ نفسه فهو حول تجارة الأفراد عبر الإنترنت، وهو مجال عمل جديد وجد فيه الألوف ضالتهم لإدارة تجارتهم بأنفسهم انطلاقاً من إمكانيات أقل بكثير مما تتطلبه التجارة التقليدية، ويفتح أمامهم العالم بأسره كسوق لبضائعهم، إضافة إلى جملة مميزات عديدة يتسم بها هذا النمط الجديد من التجارة.



3 علوم وبيئة

ويتضمَّن مناخ العلوم والبيئة موضوعاً شيقاً يبدو في الوهلة الأولى منتمياً إلى عالم الخيال. إذ يسعى إلى رسم صورة لما ستؤول إليه الحياة على وجه الأرض لو خلت فجأة من البشر. ولكن من خلال هذه الصورة المرسومة بناءً على معطيات علمية، يظهر لنا دور الإدارة والصيانة. في حياتنا اليوم، حتى ليصح أن نطلق على حضارتنا المعاصرة اسم «حضارة الصيانة».

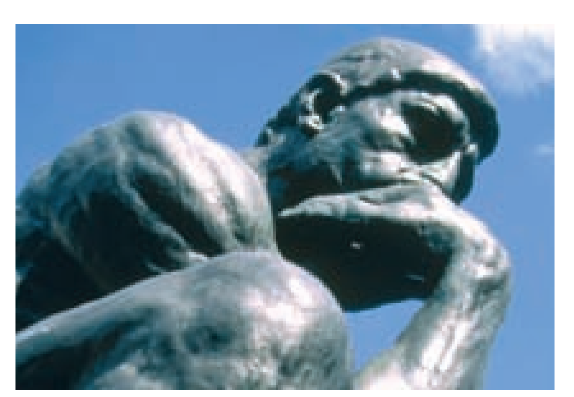
الفاصل المصور



أما الفاصل المصوَّر في هذا العدد فيعرض لقطات مصوَّرة من أعمال المصوِّر السعودي الشاب عبدالرحمن الفنتوخ الذي صقل موهبته من خلال العمل المكثف في الهيئة العليا للسياحة، ويتعاون اليوم مع المحترف السعودي في تنسيق الإعداد لكتاب مصور ضخم بعنوان «المملكة بعدسات شبابها».

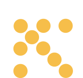
4 الحياة اليومية

ويذهب مناخ الحياة اليومية في الاتجاه المعاكس تماماً لما اعتدنا عليه عند الحديث عن الأفكار الجديدة ودورها في تطوير حياة البشر، إذ يتطرق في هذا العدد إلى دور البشر في حياة الأفكار، منذ ظهورها وانتشارها، وحتى سقوطها، كما يستعرض البحث المنشور في هذا الباب العوامل التي تدفع الإنسان إلى تبني فكرة جديدة وترويجها، وتلك التي تجعله يشيح بنظره عنها.



5 الثقافة والأدب

وبالوصول إلى مناخ الثقافة والأدب، يطالع القارئ أولاً موضوعاً يتضمَّن قراءة جديدة لشعر الأخطل الصغير الذي مرَّ ثلث قرن على وفاته، وهو موجَّه بشكل خاص إلى جيل الشباب الذين فاتهم الاطلاع على المكانة التي احتلها شعر الأخطل الصغير وقراءته، ودوره في التأسيس للمذاهب الشعرية اللاحقة.

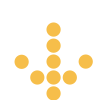




أما الموضوع الثاني فهو عرض لرواية «حارس في حقل الشوفان» لمناسبة صدور طبعة جديدة من ترجمتها العربية، وللمحتوى الاجتماعي الذي تتضمَّنه هذه الرواية، المعبِّرة عن أزمة الفرد المقموع في المجتمع المعاصر.

the CATCHER in the RYE

a novel by J. D. SALINGER



6 ملف العدد



وفي ختام هذا العدد قد يسأل القارئ وهو يطالع عنوان الملف حول السؤال وعلامته، عما يمكن أن يقال في هذا الشأن. وما عليه إلا أن يغوص في صفحاته ليكتشف الدور الذي يلعبه السؤال في حياة الإنسان والحيز الكبير الذي يحتله بدءاً من أحاديثنا اليومية، وصولاً إلى كونه نقطة الانطلاق الأولى لكل ما اكتشفه الإنسان وابتكره على مر التاريخ. فحظي بتلك العلامة التي تميزه عن كل أقوالنا وأفكارنا الأخرى.

الرحلة معاً

الحوار حول المشترك

ليس ثمة خيار آخر: لابد من الحوار بين الفرد والفرد والجماعة والجماعة والأمة والأمة. هذا إذا كان الهدف الخير والسلام الذي يعم الجميع. أما إذا كان الهدف، من أي طرف، هو مزيد من تعطيل المصالح ومزيد من الإلغاء والتهميش والفوقية والدماء، فإن الحوار يغيب ليحل محله: أنت وأنا. إما أنت معي وإما أنت ضدي. وتصبح الدعوة إلى الحوار مجرد شعار في مهب ريح هذا الإلغاء، الذي تعاظم استشراؤه في عالم اليوم الحديث، رغم مكاسبه من العلم والثقافة والتطور في بناء حقوق الإنسان وواجباته. وهي مكاسب لا يمكن أن تقاس بأي حال من الأحوال فيما مضى من حقب البشرية، سواء أكانت حقباً اكتنفها الدين أم اكتنفها التيه.

وإذا ما انشغلنا بمنطلقاتنا الآنية من الحوار فإن ما أراه لا يخفى على كثيرين. وهو أننا نسعى إلى الحوار مع الآخر لا من منطلق قوة، بل من منطلق ضعف على كل المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية. وهذا لا يعني أنني أطالب بإيقاف عجلة هذا الحوار الدائرة بقوة في السنوات الأخيرة، بل أقصد أن نفهم تمام الفهم الأرض التي نضع عليها أقدامنا ونحن نتحرك باتجاه الآخر، المختلف عنا ديناً وتقاليد وعادات اجتماعية.

ليست أمتنا الإسلامية، على الأقل في مفهوم الأمة الشائع إعلامياً، هي التي ترسم خطوات الشعوب الآن على طريق الحياة الشائكة والمتقدمة تقنياً. وليست هي التي تحرك أنظار الشعوب إلى مستقبلها. نحن أمة مستهلكة من رأسها إلى أخمص قدميها: القمح والماء والسيارة والطائرة وأشباه الموصلات وطبائع الجامعات. ماذا لدينا إذن لنقدمه للعالم من نوافذ الحوار التي نفتحها الآن على مصاريعها؟ لدينا، من



وجهة نظري، شيء وحيد ولا شيء غيره يمكن أن نغلّفه ونهديه إلى باقي الشعوب. هذا الشيء هو مدى استعدادنا، دون مراء ولا تردد، للمشاركة في حضارة اليوم.

ليس، بطبيعة الحال، الاستعداد على الصعيد المادي، وهو ما لا نملك منه شيئاً كما أوضحت، وإنما الاستعداد الفكري والثقافي، الذي نملك منه الكثير ونعطله لأننا نصر على بناء العوازل الغليظة بيننا وبين الآخرين، الذين يسكنون معنا الأرض نفسها وتغطيهم معنا السماء نفسها. الآخر، المستغني عنا بمنجزاته المدنية والتكنولوجية الهائلة، يمكن أن يستوعبنا إذا بشرنا بحالة فكرية متغيرة وصادقة تتعلق بالإنسان نفسه وكيف نصوغه ونصوغ منظومة القيم الإنسانية المشتركة معه.

وإذا أردت، أو اجتهدت، في وضع مقاييس الحوار التي يمكن أن يقبلنا الآخر على أساسها فأولها أن نعترف دون مواربة بالمشترك بيننا، وهو ليس بالضرورة عقائدياً، كما حدث من قبل في أكثر من طاولة حوار، حين سُدت منافذ المشترك بين الحضارات والشعوب، بل أحياناً بين فئات الشعب نفسه، بالأقفال العقائدية المغلظة. المشترك الإنساني غير العقدي يسع الجميع. ومن هذا المشترك، على سبيل المثال لا الحصر، ما يتعلق بحقوق الإنسان بشكل مطلق وحقوق المرأة والطفل والفقير والمهاجر واحترام الرموز والثوابت لدى كل طرف.

السنوات الطويلة التي ضاعت هباءً خلف تقريب العقائد، كان يمكن أن تُستثمر وأن نلعب فيها نحن كأمة إسلامية دوراً كبيراً، لو أن بوصلتها اتجهت إلى الموضوعات التي تقبل الحوار، وهي المواقف والآراء ووجهات النظر.

أما ثاني أسس الحوار الذي نسعى إليه مع الآخر، فهو أن تكون مستعداً باعتبارك محاوراً لتفهم وجهة نظر الآخر، المُطالَب بدرجة التفهم نفسها لوجهة نظرك. أي ألاَّ نجلس للحوار بجدول أعمال غير قابل للنقاش، لأن مثل هذا الجدول، الذي ربما يشوه صورة الآخر، لن يقبل تصحيح هذه الصورة، حتى لو امتد الحوار سنوات، بل حتى لو امتد قروناً. في صورة كل إنسان حتماً جانب مشترك مع الآخر، مهما تباعدت الجغرافيا واختلفت المشارب والثقافة. على الأقل لدى كل إنسان على وجه الأرض موقف من قتل الإنسان للإنسان أو ممارسة العنف ضد الطفولة على سبيل المثال، يستوي في ذلك المسلم وغير المسلم. ويصبح بالإمكان الحوار حول سبيل الوصول إلى تبريد جحيم القتل الذي يلف العالم كله وتقليل عدد البؤر الساخنة على أرضنا المشتركة.

الأساس الثالث والأخير هو أن تفعل أرض الحوار المتمثلة في الجامعات والمراكز وحتى المدارس المبكرة. وهذه الأخيرة تتحمل العبء الأكبر في تخليق ثقافة الحوار لدى الأفراد حول المشترك مع كل الأطراف، بعدوا أم قربوا. وإذا تجاوز الإنسان مراحله الدراسية الأولية دون أن يتعلم أصول الحوار وشروطه فإن من الصعب مطالبته بتأسيس أخلاقيات الحوار بعد أن يشب أو يشيب. ولذلك يفترض أن ننشط ونسعى دون كلل لنؤسس لثقافة الحوار في مدارسنا الابتدائية والثانوية تأسيساً حقيقياً لا مجرد شعارات وطنطنة في الصحف.

نريد أن نرى الجيل التالي وقد تبلورت لديه ثقافة حوار حقيقية، لا يتخلى فيها عن أصول الحوار التي تعلمها حتى لو تخلى الطرف الآخر عن هذه الأصول.

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى..
رئيس التحرير

ترحّب **القافلة** برسائل قرائها وتعقيبهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

التوعية المجدية

بداية أحب أن أتوجّه بالشكر والتقدير لكل القائمين على هذه المجلة الغرّاء، الذين يعملون من أجل إخراجها بهذه الحلة القشيبة، كما أسجِّل إعجابي بالجهد المبذول فيها، بدءاً من إعدادها، وحتى إيصالها إلى المشتركين في شتى بقاع الأرض.

بدأت حكايتي مع «القافلة» منذُ أن كنتُ طالباً في كلية اللغات والترجمة، قسم الترجمة الفورية، وما زلتُ حتى اليوم أتلقى المجلة بصفة دورية.

أعمل الآن مترجماً، ومشرفاً على أحد أقسام الترجمة في إحدى المؤسسات السعودية، ومازلتُ أجد في «القافلة» مايشدُّ انتباهي، ويجبرني على انتظارها كل عدد.

أُعجبتُ بموضوعاتها، ومهنية طرحها، لكن أكثر ما أعجبني فيها الموضوعات الفريدة والمتميزة التي تُسَلِّط عليها الضوء؛ فالتميز سبيل النجاح في هذا العصر الذي لم يعد يعرف حدوداً للعلم والمعرفة.

في منتصف العام المنصرم، كنتُ أعملُ على ترجمة تقرير نشرته صحيفة «الإندبندنت» البريطانية يتناول موضوع نضوب النفط، ويطرح آراء الخبراء والمتخصصين في هذا المجال. وكان عنوانه (عالم بلا نفط .. قريباً على كوكب الأرض!)، لكني وقبل نشر التقرير المترجم، كنتُ أطالع القافلة فقرأتُ فيها موضوعاً لفت انتباهي كثيراً، تحت عنوان (صورة البترول في الإعلام الغربي) عدد مايو- يونيو 2007م، وهو الأمر الذي جعلني أتخوفُ كثيراً أن نقع نحن معاشر المترجمين والصحفيين في فخ نقل موضوعات يهدف منها الغرب ضرب مصالحنا في عقر دارنا، لأهدافه الشخصية. كما أكد لدي أهمية تواصل المترجم مع أهل كل صناعة وفن، حتى يكتسب الخبرة الكافية (أقصد الخبرة التقنية، والتخصصية في كل فن) للتمييز بين الغث والثمين من الموضوعات التي سيُقْدِم على ترجمتها للقارئ العربي.

وبالفعل لم أنشر المقال، وربما ساعدتني الأقدار كثيراً على ذلك حينئذ، وقد هممتُ أن أتواصل مع إدارة المجلة بخصوص المقالين، لكنها المشاغل التي منعتني من ذلك.

بحكم عملي أتابع يومياً الصحف العالمية الصادرة باللغة الإنجليزية، مما غرس في داخلي هذا الحس الأمني -إن صح أن أطلق عليه هذا المصطلح- تجاه ما تعرضه علينا وسائل الإعلام الغربية، خاصة تلك التي تتبع الدول التي لها مصلحة مباشرة في إضعافنا، وضرب اقتصادنا، وهو الأمر الذي دفعني إلى أن أتوقف كثيراً عند نشر المقال سالف الذكر، والذي كان يسوق لفكرة حذَّرت منها القافلة في عددها.

أسأل الله سبحانه أن يرزقكم التوفيق والسداد. دمتم بتقدمٍ وتميزٍ دائمين.

علاء عادل علي البشبيشي
مترجم

الأشجار القبيحة

عندما قرأت موضوع «الشجرة في المدينة» المنشور في العدد الأخير من «القافلة»، تذكرت مقالاً قديماً كان قد نشر في القافلة حول تقليم الأشجار في شوارع مدننا العربية بأشكال هندسية كالمربع والكروي والهرمي وغير ذلك. وكنت أتمنى أن تتوسَّعوا في هذا الموضوع بنقد هذه الظاهرة القبيحة التي لا تنم إلاَّ عن ذوق فقير يعتقد مهندسو البلديات أنهم سيبهروننا به. والواقع أنه لا يستحق إلاَّ الرثاء.

فالشجرة هي أولاً وأخيراً مجموعة أغصان تتشعب وفق إرادة الخالق، لتظلل ما تحتها، وليحط عليها الطير، ولتتخذ شكلاً جمالياً فريداً وخاصاً بكل شجرة. فبأي حق يمارس مهندسو البلديات وعمالها فنهم القبيح ويفرضوه على عيوننا قسراً، ويحرموننا من ظل الشجرة، ويحرمون الطير من أن يستريح عليها أو يبني عشه بين أغصانها؟

فقبل المطالبة بتشجير المدينة العربية، يجب أن نعرف أية شجرة نريد. الشجرة الطبيعية الجميلة، أم تلك التي يحاكي فيها زارعوها المجسمات البلاستيكية؟

نايف عثمان إبراهيم
الإسكندرية

حول الشعر الشعبي

أنَّى اتجهت إلى صحيفة أو قناة تلفزيونية أو إذاعة تتلّمس شعراً أو أدباً تروّح به عن نفسك، لا تجد إلا هذا الذي يسمونه «الشعر الشعبي» الذي تعقد له المسابقات الباذخة والجوائز المسيلة للعاب.

ولو جلست إلى يافع في الخليج وسألته: ماذا تعرف عن الشعر والشعراء؟ لقال لك أعرف شاعر المليون.. وإن قلت له: أتعرف المتنبي أو امرؤ القيس أو أبا تمّام؟ فربما أجابك بسؤال: «على أية قناة يطلعون دول؟».

إننا لو تأملنا هذه الأشعار لوجدنا فيها صوراً جميلة تكشف عن عقول ذكية. ولكن مكمن العجب هو اللغة! فبأي لغة يكتب هذا الشعر؟

إنه يكتب بلهجة لا يفهمها نصف سكان الخليج، وأكثر من النصف بكثير في البلاد العربية. ومع ذلك يسمونه الشعر الشعبي. والمضحك المبكي هو أنهم عندما يكتبون عن الشعر الشعبي، فإنما يكتبون عنه بالفصحى.

ثم، هل ثمة قواعد للهجة هذا الشعر، حتى نتوقع له الخلود؟ إني أتوقع، والمستقبل علمه عند الله، أن هذا الشعر الذي اكتسح الساحات كلها سوف يموت بعد قرن أو قرنين، وسوف تذهب جهود أولئك الشعراء

مهما كانت مبدعة أدراج رياح الزمن؛ لأن الأجيال المقبلة لن تستطيع فهم هذا الشعر بسبب التغيير الذي سيكون قد طرأ على لهجتها العامية.
ليتنا نرى مسابقات مختلفة على غرار شاعر المليون مثل مسابقة عالم المليون وكاتب المليون ومخترع المليون. لقد كنا ونحن صغار نتلذذ بالبرامج الجماهيرية التي كانت عبارة عن مسابقات علمية بين الشباب مثل «لمن الكأس»، و«أبجد هوز» وغيرهما الكثير. فكم كانت تحفزنا تلك البرامج على القراءة والاطلاع وتثقيف النفس. وكم تحفز مسابقات الشعر العامي إلى .. خلاف ذلك.

زارع بن عبدالله ظافر
تنومة

لكل بيت نسخته

بداية أود أن أعبِّر عن إعجابي الشديد بمجلتكم الراقية «القافلة»، فهي تمتاز بتنوعها في الطرح وكذلك الإخراج ووضوح الصور التي تحتويها موضوعات المجلة الغراء. وقد اطلعت على هذه المجلة وقرأتها عند أخوتي، فشدت انتباهي منذ الوهلة الأولى وقد دفعتني إلى التوغل في محتوياتها والسبر في موضوعاتها المتميزة ومقالاتها الجميلة والمفيدة.
إن إخوتي يتلقون كلهم مجلتكم المتميِّزة على نفس العنوان البريدي، إذ إن لدينا صندوقاً بريدياً واحداً لكل العائلة. إلاَّ أنَّ كلاً منا يسكن في بيت مستقل عن الآخر. وقد سبق أن أرسلت إليكم كتابات عديدة أطلب منكم فيها التكرم بإرسال نسخة من مجلة القافلة المحبوبة خاصة بي، ولكني للأسف لم أجد استجابة. وهنا أجدِّد طلبي مرة أخرى راجياً تكرمكم بأن ترسلوا إليَّ هذه المجلة الشيقة والممتعة حتى تكتمل مكتبتي بها وتسعد أسرتي باقتنائها وقراءتها والتزود من علومها وثقافتها.
إن توزيع هذه المجلة الثمينة بالمجان لهو خير دليل على حرصكم على نشر الوعي المعرفي والثقافي عند القارئ العربي في زمن قلَّ فيه القرَّاء وكثر فيه المشاهدون والمستمعون. وربحكم الثمين هو زيادة أعداد القرَّاء العرب.

خالد بن ناصر بن حمود الشرقي
سلطنة عمان - نزوى

القافلة: شكراً على تعلقك بالقافلة، وستصلك النسخة الخاصة بعائلتك، إن شاء الله.

المشتركون الجدد

عبد العزيز محمد فاضل، جدة - عبدالعزيز الجمعان، الهفوف - عبدالمحسن العواد، الرياض - إبراهيم منصور الشوشان، عنيزة - حمزة الشيبة، الأحساء - فهد بن عبدالله الضويحي، الرياض - عاشور زكية عبدالحميد، الجزائر - عدنان عبد رب الرسول العيد، الأحساء - الدكتور عيجولي عبدالرزاق، الجزائر - محمد عبدالله السقاف، اليمن - عمر أبو شميس، جدة - عزيز الزيادي، الدانمارك - عبدالله الصقيعي، الدمام- علي الرويعي، الدمام - إبراهيم السعيد، أمريكا - صدقي السعد، الأردن - عبدالحميد جباري، الجزائر - عبدالمجيد قاسم، الحسكة - حسين محمد العباد، الأحساء - محمد عبدالوهاب السلهام، الرياض - طالب آل سيد حسن، شيبة - فهد بن صالح الحجاج، القصيم - نور الدين مغامس، الرياض - عواض العتيبي، الخبر - حماد الحربي، الخبر- مشعل محمد الزعبي، الكويت - محمد علي ديربة، الخبر - زاهر بن حلف السيفي، عُمان - جامعة علوم القرآن بجمبوس، الهند - أحمد سعيد القحطاني، الرياض - محمد وأحمد الثويني، الأحساء - إيمان جميل، الطائف - علي العيسى، الرياض - محمد الصالحي، أبها - مجتبي السمين، الدمام - محمد عبدالعزيز جلال، مكة المكرمة - نبيل إسماعيل حقي، الجبيل الصناعية - محمد صالح العرجان، المبرز - سالم الزهراني، الباحة - عاطف الحكيم، الدمام - محفوظ عبد الله القطري، القطيف - رياض الجهني، المدينة المنورة - إبراهيم بن صالح الحديثي، بريدة - نديم قرشي، كراتشي - طارق رزق، الخبر - اتحاد طلبة نيجيريا في بينين - بشير سعد الدين، بيروت.

القافلة: وصلتنا عناوينكم وما طرأ على بعضها من تعديل، ونرحِّب بكم أصدقاء لـ «القافلة» التي ستصلكم أعدادها بانتظام من الآن فصاعداً -إن شاء الله-.

ردود خاصة

- محمد أحمد علي البقشي، الهفوف: لم تحصل أية عملية إلغاء لأي اشتراك. المشكلة هي إما في البريد، وإما في نقطة الاستلام.
- أحمد حمد الناصر: القافلة تصدر بالعربية فقط، وعنوانك البريدي لم يتضمَّن اسم المدينة أو المنطقة.
- عبدالرحمن حجار: يمكنك أن ترسل عيِّنة من أعمالك الفوتوغرافية إلى عنوان القافلة الإلكتروني. وبعدها سيكون لكل حادث حديث.
- منى محمد سليمان، الإسكندرية: شكراً على عاطفتك، ونرجو أن يكون قد وصلك العدد المتأخر.
- سعود علي القثامي، جدة: نعتذر عن الخطأ الذي ورد في اسمك، وسنصححه، إن شاء الله.
- جاسم علي: الموضوع الذي تطلب الكتابة فيه هو من شأن مجلة متخصصة جداً بميكانيك الطيران، وليس القافلة.

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قرّاء القافلة مدعوون إلى الإسهام في هذا النقاش على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة إلى ذلك.



حول

المصباح في صورته الأولى.. لا عيب فيه



استمتعت بقراءة ملف المصباح في عدد القافلة الأخير لشهري مارس وإبريل من العام الجاري، وأثرتني قراءة المقال الرئيس حول تاريخ المصباح، بالإضافة إلى الحديث عن مصباح إديسون، وسيدة المصباح، والمصباح في الفن التشكيلي. وعندما وصلت إلى الحديث عن المصباح في الشعر، كنت أتوقع استعراضاً أكثر لأبيات الشعر العربي، وفوجئت بأن الزاوية التي اعتمد عليها مقال الشعر كان حول استخدام المصباح كتشبيه عدا التشبيه الأولي الذي يشرح مهمته في الأساس كقاهر للظلام، ورغم أن الاختيارات كانت موفّقة إلى حدٍ بعيد، إلا أنني كقارئ وددت أن أقرأ أكثر عن التشبيه التقليدي الذي استخدمه العرب للمصباح، كقول ابن مقبل متغزلاً في حبيبته دهماء:

سِـراجُ الـدُّجـى يَشْفـي السقيـمَ كَلامُها
تُـبَـلُّ بِـهـا الـعَـيْـنُ الـطَّـريـفُ فَـتُـنْـجِـحُ

وكقول حسان بن ثابت -رضي الله عنه- مادحاً المدينة المنورة:

بـطـيـبـةَ رسـمٌ لـلـرسـول ومـعـهـدُ
مـنـيـرٌ، وقـد تـعـفـو الـرسـومُ وتـهـمـدُ
ولا تـنـمـحـي الآيــاتُ مـن دار حـرمـة
بـها مِـنْـبَـرُ الـهـادي الّـذي كـانَ يَصْعَدُ

أو في قوله مشبهاً الوحي بالنور:

بـهـا حـجـراتٌ كـانَ يـنـزلُ وسـطـهـا
مِـنَ الله نـورٌ يُـسْـتَـضَـاءُ، وَيُـوقَـدُ

ويعود الأحوص ذاكراً حبيبته أسماء بقوله:

رَامَ قَـلْـبِـي الـسُّـلُـوَّ عَـنْ أَسْـمَـاءِ
وَتَـعـزَّى وَمَـا بِـهِ مِـنْ عَـزَاءِ
سُـخْـنَـةٌ فـي الـشِّـتَـاءِ بَـارِدَةُ الـصَّـيْـفِ
سِـرَاجٌ فـي الـلَّـيْـلَـةِ الـظَّـلْـمَـاءِ

ثم نرى قول الراعي النميري مفاخراً جرير بآبائه:

كَـمْ مِـنْ أبٍ لـي، يـا جَـريـرُ، كَـأنّـهُ
قَـمَـرُ الـمَـجَـرَةِ، أوْ سِـرَاجُ نَـهَـارِ

أما كثير عزة فيصف السيوف بأنها مصابيح للمعتها في المعركة فيقول:

لـوَامِـعَ يَـخـطَـفـنَ الـنُّـفـوسَ كـأنّـهـا
مَـصَـابِـيـحُ شَـبَّـتْ أو بُـروقٌ عـوامـلُ

ونرى جمال التشبيه في قول أبو تمام مادحاً:

بَـلَـى وأبِـي إنَّ الأمِـيـرَ مـحـمّـداً
لقطبُ الرحى مصباحُ تلك المشاهدِ

أو أبو فراس الحمداني حينما يقول في نفس السياق إنما متغزلاً هذه المرة:

لاثَ الـلِّـثَـامَ عَـلـى وَجْـهِ أسِـرَّتُـهُ
كَـأنّـهـا قَـمَـرٌ أوْ ضَـوءُ مِـصْـبَـاحِ

أما في الشعر الحديث، فنرى أن المصباح بمغزاه التقليدي قد استمر في التألق، فيقول أبو القاسم الشابي:

وخـبـا لـهـيـبُ الـكـون فـي قـلـبـي الـذي
قـدْ عـاشَ مـثـلَ الـشُّـعْـلـةِ الـحـمْـراءِ

ويقول حافظ إبراهيم بائساً متشائماً:

فـهُـبِّـي ريـاحَ الـمـوت نُـكـبـاً وأطـفـئـي
سِـرَاجَ حـيـاتـي قَـبـلَ أنْ يـتـحـطَّـمَا

ويقول جبران خليل جبران مادحاً أحد الشعراء:

تـرى قـوافـيـه فـي حـسـنـها نـبـتا
كـمـا تـلاحـق مـصـبـاح بـمـصـبـاح

محمد جعفراوي
فلسطين

تعقيباً على ملف «المصباح»، «القافلة» عدد مارس-أبريل 2008

حول

شوقي وإمارة الشعر

طالعت في القافلة العدد 1 المجلد 57 يناير - فبراير 2008م مقالاً بعنوان «ألا يزال للشعر دور في حياتنا؟» للأستاذ جهاد فاضل، حيث قال: «وعندما بايع الشعراء العرب شوقي بإمارة الشعر في عام 1927م كانت المبايعة حدثاً قومياً بامتياز. فقد حضرها الملك فؤاد ورئيس وزرائه سعد زغلول ونفر واسع من الزائرين العرب». والحقيقة أن شوقي بويع بالإمارة في الاحتفال الذي أقيم بدار الأوبرا الملكية المصرية في الساعة الخامسة، عصر يوم الجمعة 29 إبريل 1927م برئاسة الزعيم الوطني سعد زغلول (كان حضور سعد زغلول حضوراً رمزياً فقط، فالرجل كان في أيامه الأخيرة، وتوفي بعد هذا التاريخ بأقل من أربعة شهور، وألقى الكلمة إنابة عنه ابن أخيه ومما جاء فيها: ضعف صحتي حرمني أن أترأس هذا الاحتفال فأنَبْتُ عني حضرة صاحب المعالي، محمد فتح الله بركات باشا، ليبلغ حضراتكم تحياتي ويهدي إليكم احترامي). كما حضرت لجنة الاحتفال، التي ضمَّت الرئيس الأستاذ المحقق، أحمد شفيق باشا، والمحتفين من الشعراء، خليل مطران بك، وشبلي ملاط، وحافظ إبراهيم بك، والشاعر محمود أبو الوفا، والخطيبين الأستاذين أحمد حافظ عوض ومحمد كرد علي، وصفوة آخرين من نوابغ المغاربة ونواب العرب بينهم سيدي عبريط مدير تشريفات سلطان مراكش.

وقد أتت الإمارة منقادة لشوقي ليس لإبداعه وحده وإنما كنتاج لتلك الظروف الموضوعية، ومنها: الوطن الذي وضع القصائد الطوال في حبه، القوة الاجتماعية الجديدة التي لم يكن شوقي أحد أبنائها فحسب، بل كان في الوقت نفسه لصيقاً بأهم رموزها: خديوي مصر، سواء أكان توفيقاً أم عباساً. حتى أن لقبه الأول كان «شاعر الأمير» قبل أن يصبح «أمير الشعراء». ثم جملة المؤسسات الثقافية التي احتضنته، أهم تلك المؤسسات «الأهرام».

فقد جاء بالأهرام عدد 9 مايو 1926م تحت عنوان «لماذا لقب شوقي بأمير الشعراء؟»، تأكيد أن الأهرام صاحبة الفضل في إضفاء اللقب على شوقي أفندي قبل نحو ربع قرن، وأنها سعت طوال الوقت لترويجه: «فأقره الشعراء أنفسهم ومن ورائهم الجمهور وما كان ذلك تبرعاً لأحمد شوقي وشعره والناس مطبوعون على الضن بمثل هذه النعوت والأوصاف، ولكنه كان حقاً يؤدى لصاحبه». والسبب أن شوقي وصل من الشعر إلى ذروته حتى صار أميره وحتى صار شعره إذا نُسب إليه في غنى عن كل مدح أو هو فوق المدح المتعارف بين الناس. وكأنما هذا المقال كان إشارة البدء في تتويج الأمير. فاللقب لم يكن جديداً وإنما كان



مطلوباً أن يقره المعنيون وبشكل يتناسب مع مهابة الأمر الذي مهَّدت له الأهرام بحملة صحافية كان آخرها لقاء مع شوقي في عدد الجمعة 29 إبريل 1927م -يوم مبايعته بالإمارة- قام به أشهر محرري الأهرام محمود أبو الفتوح، الذي أجرى حديثاً طويلاً مع شوقي بك أعرب فيه الأخير عن كثير من مكنون نفسه.. وفي اللقاء اعترف شوقي «أنه كان في مستهل حياته شاعر الأمير قبل أن يصبح أمير الشعراء وأن أول ما قرضه كان مديحاً في الخديوي توفيق الأمر الذي لفت نظر -ولي النعم- حتى كان يسأل عني دائماً إلى أن تفضل وعينني بالسراي».

صلاح عبدالستار محمد الشهاوي

طنطا- مصر

تعقيباً على موضوع «حالنا مع الشعر.. أين الأزمة؟»، «القافلة» عدد يناير-فبراير 2008

حول

من كيس البلاستيك: ملاحظات وتساؤل

شاهدت مؤخراً سلسلة الأفلام التي أطلقتها قناة «بي بي سي» البريطانية بعنوان «كوكب الأرض» عام 2007م. ونجحت هذه الحلقات باحتفالها بجمال كوكب الأرض كما لم نره من قبل، بأن تبني عندي وعياً بيئياً تأخر نضوجه كثيراً، رغم كل ما نسمعه يومياً عن أهمية اهتمامنا بالبيئة. ولذلك، عندما وصل إلى يدي عدد «القافلة» لشهري مارس وإبريل، اهتممت بقراءة مقال الأستاذ أشرف إحسان فقيه، حول كيس البلاستيك بعنوان «كيس البلاستيك.. أفضل اختراع سيء». والحقيقة أن الموضوع كُتب بطريقة ممتعة وشائقة، وكانت المعلومات وافية وبعيدة عن التهويل الذي يحيط أحياناً الطرح البيئي.

إلاَّ أن لدي بعض الملاحظات التي وددت أن أكتبها إليكم، وأولها هي أن الكاتب قد بدأ مقاله مطالباً إيَّانا -نحن قراء القافلة- بأن نفترض أن موظف الصندوق في السوبرماركت يسألنا أيهما نفضِّل، الكيس الورقي أو البلاستيكي لحمل مشترياتنا. هذا الافتراض على جديته في الدول الصناعية، يبدو مفارقة مضحكة وحزينة في نفس الوقت لنا نحن قرَّاء العربية، إذ إن مشهداً كهذا يبدو لمحة فانتازية من مستقبل بعيد غير منظور.

ملاحظة أخرى تتعلَّق بما نشرته صحيفة «الإيكونومست» عن دراسة أسترالية تعترض على سن القوانين التي تقينا شر الكيس البلاستيك، حيث تخلص الدراسة إلى أن منع الأكياس البلاستيكية في أستراليا سوف يكلِّف اقتصاد البلاد ما يقارب التسعمائة مليون دولار، ويستكثر الكاتب في «الإيكونومست» على الحكومة الأسترالية حرمان الاقتصاد من مبلغ حيوي كهذا، نتيجة لاستجابة عاطفية لضغط شعبي بشكل أو بآخر.

وأخيراً، مع الزيادة المتصاعدة لميزانيات الأبحاث التي تبحث عن حلول صديقة للبيئة للمشكلات التي خلقها أعداء البيئة، يخطر ببالي أن الحل ربما يكمن في اهتمام إنسان الشارع بالبيئة اهتماماً صادقاً وحقيقياً. هذا الإنسان قد تكون لديه حلول بسيطة لا تخطر ببال العلماء في معامل الأبحاث.. ففي بداية الأمر من ابتكر مفهوم كيس البقالة، ومن قدَّم الكيس الورقي للعموم لأول مرة؟ أليس صاحب بقالة بسيط في ولاية مينسوتا الأمريكية؟

نادين صبري

جدة

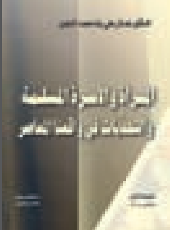
تعقيباً على موضوع «كيس البلاستيك.. أفضل اختراع سيء»، «القافلة» عدد مارس-أبريل 2008

قافلة النشر

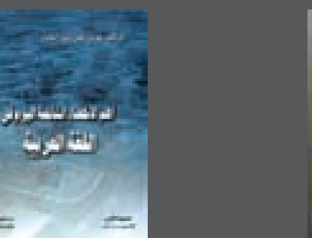


دار النحوي للنشر والتوزيع





المرأة والأسرة المسلمة والتحديات في واقعنا المعاصر
د. عدنان علي رضا النحوي

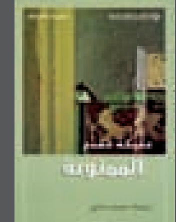


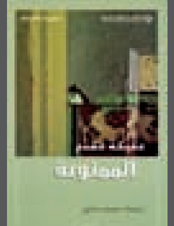
أهم الأخطاء الشائعة اليوم في اللغة العربية
د. عدنان علي رضا النحوي



اللغة العربية بين مكر الأعداء وجفاء الأبناء
د. عدنان علي رضا النحوي

الدار العربية للعلوم ناشرون



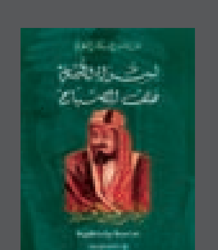


الممنوعة
مليكة مقدم

أرملة زرياب
بلقيس الملحم

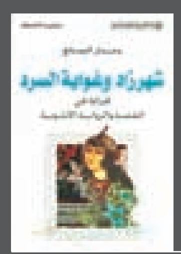


لسراة الليل هتف الصباح
عبدالعزيز التويجري

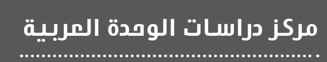


مذكرة إلى الرئيس المنتخب
مادلين أولبرايت

مملكة البنغال
محمد الداود

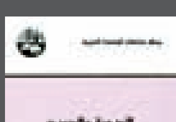


شهرزاد وغواية السرد
وجدان الصائغ



مركز دراسات الوحدة العربية

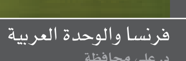




الصورة والجسد..
د. محمد حسام الدين إسماعيل

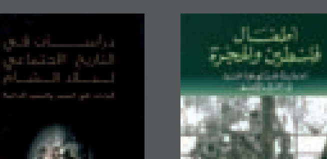


الذاكرة القومية في الرواية العربية
د. فيصل درّاج



فرنسا والوحدة العربية
د. علي محافظة

مؤسسة الدراسات الفلسطينية



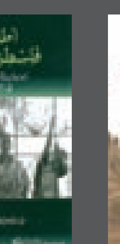


الخط الحديدي الحجازي
جوني منصور

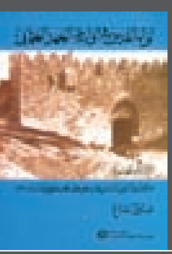
التطهير العرقي في فلسطين
إيلان بابه



أطفال فلسطين والهجرة
نور الضحى شطي
وغيليان لواندو هونت



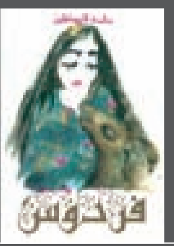
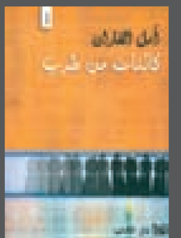
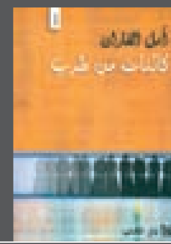
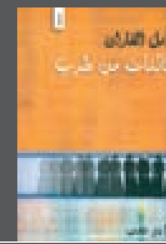
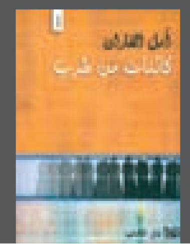
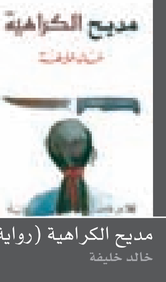
دراسات في التاريخ الاجتماعي لبلاد الشام
عصام نصار وسليم تماري



لواء القدس في أواسط العهد العثماني
عادل مناع

دار الآداب




فردوس (رواية)
محمد الباسطي

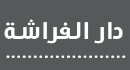
كائنات من طرب (رواية)
أمل الفاران

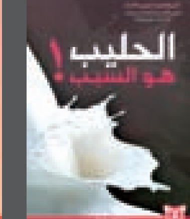
مديح الكراهية (رواية)
خالد خليفة

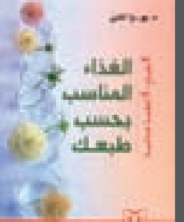
ساق الغراب (رواية)
يحيى أمقاسم

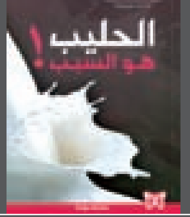
واحة الغروب (رواية)
بهاء طاهر

دار الفراشة







120 نصيحة لأوجاع الرأس
د. لو جان ديرفو

الحليب هو السبب
بروفسورة جين بلانت

الغذاء المناسب بحسب طبعك
د. يو - واتشن

أسرار العلاج بالألوان
هاورد ودوروثي صن

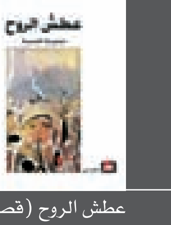
أسرار العلاج بالصوم
صوفي لاكوست

نعم للغذاء.. لا للمهدئات
ألكسندرا ماسي / أنيتا بين

دار الفارابي





الإبداع ولزوم مالايلزم في الأدب
د. محمد عبدالعظيم

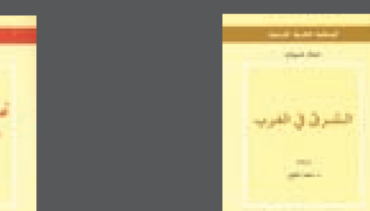
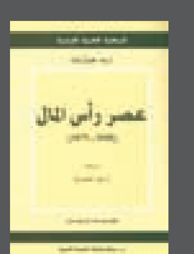
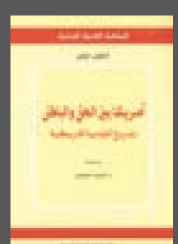
عطش الروح (قصص)
الجوهرة سعود القويضي

التعليمات بالداخل (شعر)
أشرف فياض

معجم الأفكار والأعلام
هتشنسون

طائر المئذنة
عبدالله بن علي السعد

المنظمة العربية للترجمة

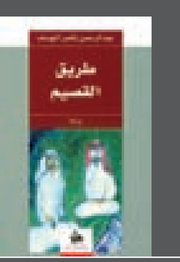
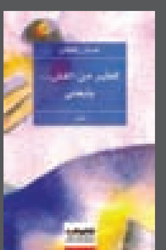
عصر رأس المال
إريك هوبزباوم

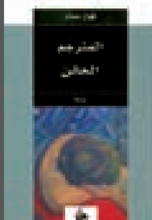
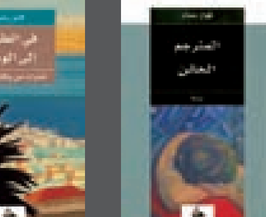
الشرق في الغرب
جاك غودي

أمريكا بين الحق والباطل
أناتول ليفن

رياض الريس للنشر والكتب



الجيل المُدان (سيرة ذاتية)
منصور سلطان الأطرش

القاتل إن حكى
نصري الصايغ

المترجم الخائن (رواية)
فواز حداد

في الطريق إلى الوطن
فايز رشيد

كطير من القش يتبعني (شعر)
غسان زقطان

طريق القصيم (رواية)
عبدالرحمن ناصر اليوسف

حلول عديدة.. بتكلفة باهظة

فقراء المدن أمام أزمة الغذاء



خلال الأشهر القليلة الماضية لاحظ المستهلكون أينما كانوا في العالم أن أسعار المواد الغذائية الأساسية (والكمالية) ارتفعت ارتفاعاً حاداً. وفيما تمكنت المجتمعات الغنية، وذوو المداخيل المعقولة من تسديد فواتير مشترياتهم (وإن بامتعاض)، اندلعت سلسلة من الاضطرابات في بلدان عديدة نتيجة التحدي الخطير الذي مثله ارتفاع أسعار المواد الأساسية مثل الأرز والسكر واللحوم أمام الفقراء. وباتت أسعار القمح والأرز والحبوب موضع اهتمام يومي في وسائل الإعلام إلى جانب تحليلات الخبراء وتحذيراتهم من المسار الذي يمكن أن تسلكه أزمة الغذاء في العالم.

الدكتور فكتور سحاب يتقصَّى أسباب هذه الأزمة، واحتمالات النجاح في مواجهتها، وصولاً إلى ما يمكن أن يترتب عليها من نتائج.

ناصر الربيعي





Corbis

الجوع المذل

عند بداية الألفية الميلادية الثالثة، قبل سنوات سبع ونيِّف، أعلنت الأسرة الدولية أنها قررت العمل لتقليص عدد الفقراء الجوعى في العالم إلى النصف في سنة 2015م. واليوم في سنة 2008م، صدرت تحذيرات دولية مقلقة، تخشى أن يتضاعف عدد الفقراء الجوعى، بعدما قفزت أسعار المواد الغذائية الأساسية، على نحو أشعل فتيل الاضطراب الاجتماعي في بعض البلدان، ومنها ساحل العاج وهايتي وموريتانيا والمكسيك والسنغال وتونس واليمن ومصر.

وأصاب الهلع دولاً منها الفلبين وبنجلادش، حيث لم تستطع الحكومات أن تضمن طلبها من الحبوب، لتثبيت مخزونها؛ لأن التجار تريثوا في انتظار اتضاح وجهة تحرك الأسعار. فما الذي حدث للعالم، حتى انقلب الأمر هذا الانقلاب المخيف، وبتنا تحت رحمة «تسونامي صامت» كما قال أحد مسؤولي برنامج الغذاء العالمي؟

كانت أسعار المواد الغذائية تسير نحو الهبوط منذ الربع الأخير من القرن الميلادي العشرين، حتى سنة 2005م، ففقدت هذه الأسعار ثلاثة أرباع قيمتها، ودفعت دولاً زراعية كثيرة إلى الإقلاع عن تركيز دخلها على الزراعة وحدها، أو على الزراعة أولاً، أو على الزراعة عنصراً أساساً من هذا الدخل. وكانت الشكوى أن هذا الانكفاء عن الزراعة هجَّر ملايين البشر بل مليارات، من الريف إلى المدينة، فظهرت مدن الصفيح وأحزمة الفقر حول المدن الكبرى، وأقفرت الأرياف من ساكنيها وزارعيها.

وعلى الرغم من النفير الذي سُمع صوته مدوياً في أرجاء العالم أخيراً، منذراً بأن ارتفاع سعر الأغذية الأساسية بدأ يُحدث توسعاً خطيراً في رقعة الجوع، إلا أن هذا الغلاء الطارئ ليس تماماً سبب المجاعة التي يعانيها فقراء البشر، ولا حتى سبب ظهور هذه المجاعة. إذ يقول بير بنسترب - أندرسن، أستاذ التغذية والسياسة العامة في جامعتي كورنيل وكوبنهاغن «إن 860 مليون نسمة كانت عاجزة عن الحصول على الطعام حين كانت الأغذية أرخص» قبل سنوات خمس. لكن معظم هؤلاء يعيشون في الأرياف، بخلاف المتظاهرين جوعاً اليوم، الذين تملأ أخبارهم عناوين الصحف، فهؤلاء سكان مدن. ويضيف بنسترب — أندرسن قوله: «كان ينبغي أن نتظاهر منذ سنوات خمس».

أسباب الأزمة

لقد عزت بعض الأبحاث تعاظم الأزمة إلى صعود دول ضخمة التعداد، على رأسها الصين والهند، إلى مصاف الدول المتجهة بسرعة نحو التقدم، على النحو الذي حسَّن استهلاك الغذاء فيها. فاختفت المجاعة

من الهنـد، وفيما كان الإنسـان الصيني في عام 1985م يـأكل كل سنـة 20 كيلوجرامـاً مـن اللحـم، صـار يأكل اليوم 50. ومـع الحاجة إلـى 8 كيلوجرامات من الحبوب لإنتـاج كيلوجرام لحم، يتضح حجـم الحاجة المستجدة لتحسين مستوى التغذية لدى مليارين من البشـر يقطنون هذيـن البلدين وحدهما، لا سيمـا حين يتحول النظـام الغذائي إلى إكثار تناول اللحم، بدل الحبوب. وتستدل الأبحاث هـذه، لإثبات حجتها، بأن الطلب زاد أكثر مـن الإنتاج، الذي زاد هو الآخر، لكن بنسبة لـم تلبِّ كل الطلب. وتشير إلى أن زيادة علـف الحيوانات الأليفة وحدها، راوحـت بيـن 200 و250 مليـون طـن، على مـا كان قبل عشرين عاماً.

الغلاء الأخير ليس سبب الجوع اليوم، فقبل 5 سنوات كان 860 مليون إنسان في الأرياف جوعى

الإيثانول من الأسباب

إلا أن أبحاثـاً أخرى رأت أسباباً أقوى أثراً، هي الهجمة الأمريكية علـى وقود الإيثانول، المستخـرج من الذُّرة، والدعم الذي يلقاه هذا النمط الجديد في إنتاج الطاقة، لأسباب الراجح فيها أنها سياسية لا اقتصادية. ذلك أن إنتـاج وقود الإيثانول هذه السنة سيبتلع ثلث إنتاج الذرة الأمريكي. وإذا علمنا أن ملء خزان وقود سيارة رباعية الدفع مرة، يحتاج إلـى ذرة تستطيع إطعام إنسان سنة كاملة، يتضـح حجم ما تختطفه هـذه الهجمة من على مائدة الفقراء في العالم. وهي هجمة لا تأخذ الذرة من أفـواه البشر فقـط، بل من المواشي التـي ستُعلَف علفاً آخر، تؤدي نُدرته من طريق أو آخر، إلى أن يعز الطعام عند البشر أيضـاً. فالثلاثين مليون طن من الذرة التي حُوِّلَـت وقـوداً، تسـاوي نصف مقـدار تقلص مخزون الحبـوب في العالم كلـه هذه السنة. ويستـدل أصحاب حجـة «تجريـم» الذرة في الغـلاء الأخير، بـأن التحول الغذائي فـي الصين والهند كان متدرجـاً في السنوات الماضيـة، ولا يفسِّر الغلاء المفاجـئ في سعر الحبوب والغذاء.

لقـد أدت الهجمـة على زرع الـذرة، إلى تقليص المساحة المزروعـة أرزاً أو حبوبـاً أخرى، مع تحـوّل المزارعين إلى الغلال الأجدى. وبذلك يـؤدي الإقبال على نوع من الحبوب إلى غـلاء الأنواع الأخرى. وقد بلغ دعم الحكومة الأمريكية زرع الذرة سبعة مليارات دولار، أي إن كل غالون وقود، كلف واشنطن 1.90 دولاراً أمريكياً.

غيـر أن الأسباب التقليدية لغلاء الحبوب كان لها دور أيضاً فـي القفزة الأخيرة، إذ إن الجفـاف الذي يضرب أستراليا منذ سنوات ست، قلَّل الإنتاج الآن سنتين على التوالي. وزاد الطيـن بلة أن بلدين أساسييـن يخزنان الحبوب على نطاق واسع، همـا الولايات المتحدة الأمريكيـة والصين، قلصتا المخزون السنة الماضية، توفيراً للمال.

وجاء فـي تقريـر أصدرته منظمـة فايتسِنجِـر الدولية في ألمانيـا في أبريل الماضي، أن سعر الأرز، الطعام الأساسي عند نصف سكان الكرة الأرضية الستة مليارات، زاد «زيادة صاروخية». فلامس سعر الطـن ألف دولار أمريكي، أي إنه تضاعـف نحو مرتين منذ بداية سنـة 2008 الجارية. وقال التقرير إن الزيـادة لم تقتصـر علـى الأرز بالطبع، فمنذ أواخر سنـة 2006م، زاد سعر كل الأغذية الأساسية، الذرة والحبـوب والصويـا ومنتجـات الحليب واللحـم وكل زيوت الطعام زيادة كبيرة.





والغريب في الوضع أن الأسعار تزيد فيما يعلن مجلس الحبوب الدولي في لندن، أن نسبة الغلال السنة الفائتة 2007م، بلغت 1.66 مليار طن، وهو رقم قياسي. ولإيجاز الوضع المعقد هذا، فإن الإنتاج زاد، لكن الطلب زاد أكثر، وتقلص المخزون.

> **فقراء سيسحبون أولادهم من المدارس ليأكلوا وآخرون لن يأكلوا غير الحبوب... أما الأشد فقراً فحالتهم كارثة مطلقة**

ما يختفي عن المائدة

ولفهم الخطر الذي يعنيه هذا الغلاء، من دون بهلوانيات فكرية معقَّدة، شرحت جوزيت شيران، رئيسة برنامج الغذاء العالمي، كيف تؤثر أزمة الغذاء اليوم في حياة مئات ملايين البشر. فقالت: «يعني (الغلاء الأخير) عند الطبقات المتوسطة، تقليص إنفاقها على الخدمات الطبية... أما الذين يعيشون بدولارين في اليوم، فيعني الأمر امتناعهم عن أكل بعض اللحم وإخراج الأولاد من المدارس. وسيضطر الذين يعيشون بدولار في اليوم، إلى التوقف عن أكل اللحم والخضار والاكتفاء بأكل بعض الحبوب. أما الذين يعيشون بنصف دولار في اليوم فالأمر لهم كارثة مطلقة».

وترى مجلة «إكونومست»، إن شح الطعام يستطيع أن يكون شراً مستطيراً وخيراً عميماً في الوقت نفسه. فهو يضر لا شك سكان المدن الفقراء، الذين كان طعامهم في الأصل باهظ الثمن، فزاد ثمنه غلاءً الآن. لكنه يفيد سكان الأرياف لأنه سيحسِّن سعر محصولهم، في البلاد الفقيرة والمناطق التي عانت الإهمال طويلاً.

لكن هذا التحليل يُظهر شبهة تناقض محيِّر في الموقف: فقد خفضت الدول الغنية أسعار نتاجها الزراعي بالدعم، فحدثت الكارثة الزراعية في الدول الفقيرة. والآن زادت الأسعار فحدثت الكارثة. كيف يصح الأمران معاً؟

الحقيقة أن ليس في الأمر أي تناقض، ذلك أن إغراق الدول الغنية أسواق الغذاء في العالم بنتاجها المدعوم ألحق بالغ الضرر بالمُزارع في العالم الثالث، لأنه عجز عن منافسة أغذية أوروبية وأمريكية، أنفقت الكتلتان الكبريان مئات مليارات الدولارات في دعمها. فتوقف المزارع في تلك الدول الفقيرة عن الإنتاج، لعدم قدرته على بيع نتاجه في مواجهة أغذية مستوردة رخيصة وجيدة، واضطر المستهلك فيها لأن يأكل من الطعام المستورد أكثر فأكثر. والآن، بعدما انكفأت دول العالم الثالث عن إنتاج الطعام قدر ما كانت تنتج في الماضي، وباتت رهينة الأسعار التي تفرضها منتجات الدول الغنية، أدت زيادة سعر الغذاء الأخيرة، ونسبة كبيرة منه آتية من الدول الصناعية المتطورة، إلى نذير جوع، لا عند المزارع فقط، بل عند المستهلك أيضاً في هذه الدول النامية.

ويعتقد خبراء أن زيادة الأسعار العالمية، وعدم قدرة المستهلك في الدول النامية على شراء سلة غذائه من الطعام المستورد من الخارج، ستعيد إلى المُزارع في هذه الدول النامية قدرته على تصريف نتاجه، في السوق المحلية على الأقل.

عوامل السوق أم السياسة؟

غير أن الأمور لن تكون وقفاً على عوامل السوق من عرض وطلب فقط. فسياسة الحكومات يمكن أن تضر وتنفع. وإذا لم يفعل القادة السياسيون شيئاً في القطاع الزراعي، أو إذا فعلوا فعلاً غير سليم، ففي إمكانهم زيادة بؤس المدن الفقيرة، وإذا أحسنوا اختيار البرامج الحكومية المناسبة، لتعزيز الزراعة والإنتاج، فستستفيد الأرياف والمدن معاً، في البلدان النامية التي كانت المرحلة السابقة شديدة الوطأة عليها.

كذلك يتوقف كثير من عناصر الحال في السنوات المقبلة، على مليارات الدولارات التي تنفقها الدول الغنية اليوم في دعم مزارعيها. فقد أدت سياستها هذه، إلى زيادة الضرائب وتدهور جودة الغذاء، واعتماد نمط الزراعة الكثيفة لإنتاج محصول واحد، وإغراق الأسواق للقضاء عمداً أو عرضاً على إنتاج الدول الفقيرة، ثم زيادة السعر بعدئذ، على نحو



Corbis

Reuters

ألحق البؤس بالمُـزارع والمستهلك معاً في تلك الدول، وألحق أشـد الضرر باقتصادها القائم على الزراعة وحدها في كثير مـن الحـالات. كذلك لـم تكن السياسـة الزراعية فـي الدول الغنيـة في الإجمـال منّاً وسلوى للمُزارع الغربـي نفسه، إذ إن منطـق الزراعة المكثفـة، يعني الاستغناء عـن جزء كبير من اليد العاملـة الزراعية، باستخدام الآليـات والأسمدة بكثرة، واستيـلاء الشـركات الكبيرة على أملاك صغـار المزارعين، لإنشـاء منظومات زراعية شاسعة، تملكها احتكارات عملاقة. ومع ظهور عواقب وخيمة لهذه السياسة، اتضح أيضاً أن ارتفاع الأسعـار دفع كثيراً من المزارعين في الـدول الاستوائية، إلى الهجـوم على الغابـات القريبة مـن أماكن سكناهـم، والبدء في تعريتهـا لزرعها. وقد سرَّعت هـذه النزعة مسيرة خطرة فـي الأساس، تنحـو نحو تقليص مساحة الغابـات في الكرة الأرضية، وما يجلبه هذا التقليص من خطر بيئي شامل.

الوضع المعقَّد

يـرى تقريـر فايتسِنجِر، أن ثمـة عوامل تقنيـة في سوق الغذاء تتحكـم بالحركة والأسعار. فسعر السلعة الغذائية الزراعيـة تحكمـه دورة زمنيـة. ذلـك أن لحـاق الإنتاج المنشـود، بزيادة الطلب، يلزمـه على الأقل مضي موسم زراعـي. وبعـد هذا يحتـاج إنشاء احتياط مـن المخزون وقتاً آخر حتى تستقـر الأسعار على مستوى ما. كذلك لم يغب حسبان أثر غلاء الوقود، فهو يزيد سعر المخصبات وتكلفة النقل.

غيـر أن جـان تسيغلـر، مفوض الأمـم المتحـدة الخاص المكلَّـف شؤون حق الغذاء، وصـف تحويل نسبة كبيرة من النتـاج الزراعـي إلى صناعـة الوقود، بأنـه «جريمة بحق الإنسانية».

ويعتقد خبراء آخرون أن تلبية طلب الغذاء في السنوات المقبلة أمر مشكوك فيه، مع تسارع تمدد المدن واستقطابها نسبةً أكبر من سكان الكرة الأرضية، على نحو ينشِّط وتيرة التصنيع ويلقي بعبءٍ إضافي على البنى التحتية المدنية ويغزو مساحة أوسع من الأرض الزراعية ليحولها إلى رقع إسمنت عاقر، تزيد ضخ المياه الآسنة في جوف الأرض. ولا يرى الخبراء أن هذه العوامل بعيدة عن الجفاف الذي يضرب أستراليا منذ سنوات ست، ويعتقدون أن هذا الجفاف قد يمتد عقداً من الزمان.

على الدول الصناعية أن تلغي دعم الزراعة الذي يشوِّه عناصر سوق الأغذية وتفتح أسواقها للاستيراد من نتاج الدول النامية

... والحل؟

في وسط كل هذه العوامل المتداخلة المعقَّدة، أين الحل إذن؟

لقد اصطدمت منظمة التجارة العالمية سنوات بجدار صلب، في التفاوض المستمر الرامي إلى ما يسمى «تحرير التجارة العالمية»، بسبب إخفاق دورة الدوحة في الخروج باتفاق بين الدول الأعضاء في شأن المسألة الزراعية. وكان السبب الأول لهذا الجمود، ولا يزال، الخلاف الأمريكي الأوروبي على إلغاء دعم القطاع الزراعي. فالدول المتقدِّمة، التي جعلت موعظتها الوحيدة للدول النامية، أن على هذه الأخيرة أن تلغي الحدود الجمركية، لتتيح دخول منتجات الصناعة الغربية على الأخص، بحرية تامة، لا تبدو منسجمة مع سياسة التحرير التجاري التي تبشر بها، حين يأتي دور تحرير تجارة المنتجات الزراعية، وما يقتضيه هذا التحرير من وقف دعم المنتجات الزراعية في أوروبا وأمريكا. وتبدي بروكسيل وواشنطن عناداً في موقفيهما، كل لذرائع مختلفة، لكنهما أوصلتا التفاوض في منظمة التجارة العالمية إلى حائط مسدود.



ولا تختلف الآراء في أسباب أزمة الغذاء فقط، بل في الحلول المقترحة لها أيضاً. فروبرت زوليك، رئيس المصرف الدولي، وكان فيما مضى مندوب واشنطن إلى منظمة التجارة العالمية، يرى أن على المنظمة أن تقرر وقف دعم المزارعين وإلغاء الحواجز الجمركية. ويقول زوليك: «إن الوقت حان لوقف تشويه الأسعار بالدعم، وتحرير الأسواق. إذا لم نفعل هذا الآن، فمتى؟».

«مهلاً، مهلاً!» يرد داني رودريك، الأستاذ في جامعة هارفرد. ويضيف: «ألن تؤدي إزالة الحواجز الجمركية إلى زيادة الأسعار؟»، ويشير إلى أرقام المصرف الدولي نفسه، الذي أكد أن إزالة هذه الحواجز ستزيد أسعار القمح والأرز والحبوب الأخرى.

ويرى بنسترب – أندرسن، أن على الدول الصناعية أن تلغي دعم الزراعة الذي يشوه عناصر سوق الأغذية العالمية، وتفتح أسواقها للاستيراد من نتاج الدول النامية.

وفي المقابل، وبعدما انحسر استثمار الدول النامية في أبحاث الزراعة منذ ثمانينيات القرن الميلادي الماضي، وانخفضت أسعار منتجاتها بلا توقف منذئذ، فلا بد من قلب هذا الاتجاه، بفعل عوامل حافزة منها ارتفاع الأسعار، هذا صحيح، لكن بفعل سياسة الدول المتطورة أيضاً، التي ينبغي أن تفتح أسواقها لمنتجات العالم الثالث، وتقلِّص دعم زراعتها، وهو دعم أثبت أنه لم يشوِّه نظام الأسعار فقط، بل أدى أيضاً إلى إلحاق الأذى بالأسواق وبالبشرية وأمنها الغذائي.

وحذر بنسترب – أندرسن من اتباع سياسة تزيد خطر المجاعة بدل تقليصه، كأن تضع الدول المتقدِّمة مثلاً ضرائب على تصدير الأغذية، من أجل خفض أسعارها في السوق المحلية. فذلك شأنه زيادة سعر الصادرات إلى الدول الفقيرة، فوق زيادته الفاحشة الآن.

Corbis Google

مؤتمرات.. مؤتمرات.. والمطلوب واحد: الطعام!

واقتـرح على حكومات الدول النامية أن تضع نصب أعينها، زيادة الإنتاج بوسائل أقل، فتنشئ بيئة سوق زراعية ملائمة للمزارعين، وتضع في سعر مبيـع المنتجات الغذائية بنوداً لسعـر الأرض والهواء والماء، ضمن تكلفة الإنتاج الزراعي. وأكـد أن شأن هـذه السياسة أن تعيد الوفـرة المعقولة إلى سـوق الغـذاء، وتحفظ البيئـة للأجيال المقبلـة في الوقت نفسـه، «وإلا اقترضنا من حفدتنا، سعر الطعام الذي نأكله اليوم!».

وحـث بنسترب – أندرسن الدول الغنية على إقراض الدول الفقيـرة ذات القـدرة الزراعيـة، حتـى تستثمر فـي تنمية زراعتها، بدل منحها الغذاء الذي تنتجه دول الشمال الثرية. وقـال إن عقد صفقـات غذاء بسعر مدعـوم، يساعد الدول الفقيرة في المدى القصير فقط. ونبه إلى أن عوامل السوق وحدها لا تستطيع أن تنهض بالزراعة في دول الجنوب؛ لأن الأقوياء في السوق العالمية يملكون قدرة هائلة على التحكم بمعايير القيم في الإنتاج الزراعي.

حركة دولية

بيـن 20 و25 أبريـل الماضـي، عقد مؤتمر الأمـم المتحدة للتجـارة والتنميـة «أنكتاد» دورتـه الثانية عشـرة في غانا، وأصـدر إعلانـاً، احتلـت فيه مسألـة الغـذاء وأزمته مكانة متقدِّمة. وأكـد الإعلان، أن «ارتفاع أسعـار الإغذية» يَدرُج ضمن أسبـاب «تبطئ نمو العالم والبلـدان النامية»... وأن فـي الأوضاع المستجـدة «مخاطر مباشرة علـى الفقراء». وتعهـدت الـدول المشاركة، فـي إعلانها «التـزام مكافحة الفقر والجوع» و«اتخاذ خطوات فورية دعماً للأمن الغذائي العالمـي» وكذلـك اتخاذ «التدابيـر الضروريـة كافة لتلبية الحاجة الإنسانية الملحة فـي البلدان النامية، لا سيما أقل البلدان نمـواً وإفريقيـاً». وأعلنـت الـدول المشاركة قولها «وسنعيـر اهتمامـاً خاصاً لحاجـة الأمهـات والأطفال إلى الغـذاء والتغذية. وسيكون ثمـة حرص على ألا يُكبَح بلا داعٍ الاتِّجار بالمنتجات الغذائية، وسنساند في المدى المتوسط والأطـول، الجهـود الوطنيـة الراميـة إلـى زيـادة الإنتـاج الغذائـي... وإلى إصـلاح... التجـارة وتحريرها في مجال الزراعة وتحسين تدفق المساعـدة الإنمائية الرسمية، إلى القطاع الزراعي في البلدان النامية».

وإذا كان المؤتمـر الدولـي هذا معبِّـراً كالمعتاد، عن هموم الدول النامية أكثر من إعرابه عن قرارات الدول الصناعية الفاعلة والمؤثـرة، وإذا كان مصير الإعـلان على الأرجح، معرضـاً للإهمال، ما لم تُقبل الدول المتقدِّمة على اعتماده قلباً وقالبـاً، لتسير في تطبيق توصياته، فـإن أنظار العالم ترتقب مؤتمراً آخر، تعقده الدول الصناعية الثماني الكبرى بين 7 و9 مـن شهر يوليو المقبل، في تورياكو اليابانية، حيث ستُطرَح بقوة ولا شك مسألة الغذاء والدعم الزراعي وقضايا الخلاف الأمريكي الأوروبي في شأن دعم الزراعة.

فهل تجـد الحلول المقترحة طريقها إلى الولادة في تورياكو، أم إن على الشعوب الفقيرة أن تشق طريقها وحدها في حل هذه المعضلة، وعلى ملايين أخرى أن تموت جوعاً، بانتظار أن تؤتي الحلول أُكُلَها؟



صورة من الصين


Reuters

هـزّ سياو وانـغ بائع الخضار فـي غوانغ جو، كتفيـه بلا مبالاة وضحـك، وهـو يزن حزمة كـرّاث، في محلـه الصغير في أحد الشـوارع الخلفية، في هـذه المدينة الناميـة بسرعة. قال وهو ينفـث الدخان، أمام منضدة وضع عليها الباذنجان والبركولي والتوابل: «كل شـيء زاد سعره نحو 20%، ولا نستطيع أن نفعل شيئاً».

وفيمـا بلغت نسبـة التضخم في الصين ذروتهـا في أحد عشر عامـاً، يستطيع المحللـون الصينيون العارفـون بسعر الغذاء، العاملـون فـي الشـركات المحلية مثـل «ليانهـوا» أو «وومارت» أو «تايمـز»، والشـركات الأجنبيـة الضخمـة مثل «كارفـور» أو «وولمـارت»، أن يفهمـوا على الأقـل الآن، سبـب العاصفة التي هبَّت على الأسعار.

السبـب بسيـط: طلـب الطعـام، ليـس كغيـره من طلـب سلع الاستهلاك الأخرى. فهو طلب غير مطاط. ففي حالات الغلاء، وفـي حـالات الرخص، يحتـاج الناس لـلأكل. أمـا المنتجون فوضعهـم مختلـف، لأن عليهـم أن يواجهـوا أسعـار التكلفـة حيـن ترتفع. ولديهم مهلـة يزيدون فيها الأسعـار قبل أن يغير المستهلك عاداته الغذائيـة. لكن هؤلاء المحللين يحذرون من أن المستهلك الصينـي، كغيره مـن المستهلكين في العالم، قد يتحول إلى البدائل الأرخص، حين يجتاز السعر عتبة معيَّنة.

فمنـذ منتصف سنة 2007م، زاد سعـر علبة المشروب الغازي 20%، ليبلغ 3.6 يوان، أي 52 سنتاً أمريكياً، وتسارع الغلاء في سنـة 2008م، فيما زاد سعر علبة اللبن 25% ليبلغ 1.75 يوان، حسب سجـلات «كارفور» و«ليانهوا». ويـرى تيموثي بوش، وهو محلـل أسعار يعمـل مع ميريل لنش، في هونـج كونج، أن «باعة المفرق هـم المستفيدون، حتى يحين وقت يبدأ فيه الطلب في التقلص، لأن الأسعار تجاوزت حداً ما».

ويُتوقـع أن تنمـو تجـارة «الأسـواق العملاقـة» فـي الصيـن (هايبرماركت) 20.5% سنة 2008م، لتبلغ قيمتها 47.5 مليار دولار، وفق تقديـر مؤسسة الدراسات الأوروبيـة «يورومونيتور إنترناشونال»، أما سوق المحال الكبرى (سوبرماركت) فيُتوقع أن تنمو في هذه السنة 16%، لتبلغ قيمتها 151.2 مليار دولار.

وللمقارنـة، ستنمـو تجـارة «الأسـواق العملاقة» فـي الولايات المتحـدة الأمريكية السنة الجاريـة 9.5% لتبلغ قيمتها 244.1 مليـار دولار، فيمـا تنمو تجـارة المحال الكبـرى 4.3%، لتبلغ قيمتها 334.9 مليار دولار. ويستأثر الطعام بثلث سلة المستهلك في الصين، البالـغ عدد سكانها 1.3 مليار نسمة.

غير أن باعة الأغذية في الصين ليسوا وحدهم في هذا الوضع، فباعـة الملابس والألعـاب وغيرهم يشعرون بحـرارة الأسعار المرتفعـة. أما فـي الولايات المتحـدة فتقـول وزارة العمل إن باعة المفرَّق الأمريكيين شطبوا 75 ألف وظيفة منذ بداية هذه السنـة. وتزيد أسعـار الغذاء الأمريكية عـادة 2.5% كل سنة، لكنها زادت 4% سنـة 2007م، وهذه أكبر زيادة سنوية في 17 سنـة. ولا يختلف حال أسعـار الغذاء في بلـدان آسيوية أخرى غير الصين.

ويقـول دونـج يوجـوو النـاطق باسـم «وول مارت» فـي الصين، إن 95% مـن السلع التـي تبيعها الشركة صينيـة، وقد وضعت الحكومة موانع لوقف زيادة الأسعار، وفرضت شروطاً لتحسين

شـــروط عمل الموظفيــن، وهذان أمران يضيقــان هوامش ربح الشركات الأجنبية العاملة في التجارة.

لكـن هذا لا يعني أن الرحيل غـداً، فسوق الاستهلاك الصينية هــي اليوم فــي عــز مراحـل النمـو، والمستهلك يزيـد قدرته الشرائيــة سنة بعد سنة. إلا أن السوق الصينية التقليدية، التي تختلـف عن نمط المحــال الكبرى الغربي، لا تــزال غالبة على الحركة التجاريــة، ويقدِّر الخبراء أنها تستحوذ على 80% من مجموع الحركة التجارية، في مقابل 20%، للنمط الغربي.

ولا يــزال المستهلـك على عاداتـه الغذائيــة التقليدية على الرغم مــن الغلاء. وتقــول ليو جينلان، وهــي متقاعدة في الخامســة والستين، تتسوق في «وول مارت»: «لا يؤثر تضخم أسعار الغذاء كثيراً في حياتي». وتضيف أن إنفاقها الشهري فــي بند الطعــام زاد ليبلـغ 1700 يوان بعدمــا كان أقل من 1000 يــوان قبل سنــة. وتؤكد أنها لا تــزال تشتري أصناف اللحــم الجيدة، علــى الرغم من غلائها، وكذلـك الإنكليس والسلطعون.

(بتصرف عن إنترناشونال هيرالد تريبيون)

...وصورة من اليمن

ليســت زيادة أسعار الغــذاء الأخيرة سوى عامــل إضافي يزيد الضغـط علــى اليمنييــن. وقد كان هــذا الوضع عنــوان مؤتمر صحافــي عقده برنامج الغذاء العالمــي في صنعاء أخيراً. فقد احتـل اليمــن المرتبة 153 بيــن 177 دولة على جـدول برنامج التنمية الدولي، سنــة 2007م. فمعدل دخل الفرد السنوي يبلغ 760 دولاراً، ويعيـش 40% مــن اليمنيين البالــغ عددهم 21.7 مليون نسمة، بأقل من دولارين في اليوم.

ويقول برنامج الغذاء العالمي إن أسعار الطعام زادت في اليمن في الأشهر التسعة الأخيرة 40%، فيما انخفض مخزون الطعام فــي العالم إلــى أدنى مستوى بلغــه في 30 سنة. وقـد أدى شح الطعــام وغلاؤه إلى اضطراب اجتماعي عالمي وعدم استقرار وعسر اقتصادي.

ويقول محمــد الكهان، مدير برنامج الغذاء العالمي في اليمن، إن «أسعــار الغذاء زادت من جــراء عوامل عديدة، منها ارتفاع سعر الوقــود والمخصبات والجفــاف في أستراليــا». ويضيف الكهــان قوله: «بين يونيــو 2007م، ومارســ 2008م، زاد سعر الحبــوب الأساسية العالمي 80%، ولم يحدث مثل هذا منذ 28 سنة».

ويعيش ثلثا الشعــب اليمني في المناطق الريفية، ويعتمد هؤلاء علــى الزراعة فــي كسب عيشهــم. فالزراعة قطــاع اقتصادي أساس في اليمــن، ومشغِّل كبير لليد العاملة، في بلد تبلغ نسبة البطالــة فيــه 37%. والزراعــة إذن عامل يبطــئ الهجرة إلى المــدن. ومع هــذا، فإن مصــادر الدخل الشحيحــة غير قادرة علــى إعالة السكان الذين يتوالــدون بنسبة تفوق 3% كل سنة، تضــع اليمــن في المرتبــة الرابعة بيــن دول العالم فــي سرعة التوالد، على ما جاء في تقرير حديث لمنظمة الطفولة الدولية «يونيسيف».

ويُعــد سكان المدن أشد تعرضاً للفقر من جرَّاء غلاء الأغذية، وقــد اجتاز 6% من اليمنيين عتبة الفقر نزولاً، في هذه الأزمة الأخيرة، فانضموا إلى 40% يعيشون أصلاً بأقل من دولارين في اليوم. وقال الكهان: «مــاذا تستطيع عائلة من سبعة أشخاص، معــدل دخل الفرد فيهــا دولاران في اليوم؟ إنهــا مضطرة إلى الاكتفاء بوجبة غذاء وحيدة في اليوم».

فالغــلاء يؤثر بقوة مباشرة فيمــا ينتظر العائلة اليمنية أن تراه علــى مائدتها. ولذا اقتطع كثير مــن عائلات اليمن، من قوائم طعامهــا الأغذية الثمينة كالجبن والخضــار الطازجة، واتبعت عائــلات أخــرى أسلــوب تقليصــ وجباتها. ولا مفــر للكثيرين من الإقــلاع عن أكل الفاكهة واللحــم واختصار نفقات العناية الطبية أو تعليم الأولاد.

وتؤثــر قلة الغــذاء كثيراً في صحة الأطفــال. وقد جاء في تقرير دولــي، صدر في سنــة 2004م، أن 43% من العائلات في اليمن (أي 8.3 مليــون نسمة) لا تنعم بالأمن الغذائي، وأن 22% (4.3 مليــون) يعانون فعــلاً قلة الغــذاء. وقد جاء فــي خريطة الجوع التــي تضمنهــا التقرير، أن نسبة هذا الشــح الغذائي، طالت في المحافظات اليمنية بين 27% و86% من السكان فيها.

وتتفاقــم المشكلــة الغذائية في اليمــن، مع تعاظــم الهوة بين موازنــة برنامج الغــذاء العالمي البالغة 28 مليــون دولار، وبين الحاجة النامية بسرعة، لا سيما بعد موجة الغلاء الأخيرة.

(بتصرف عن نشرة «يمن أوبزرفر»)

قول في مقال

الترجمة..

عندما يكون غيابها أفضل

غالباً ما يتم تناول واقع الترجمة إلى العربية بالنقد، وغالباً ما يقتصر النقد على الحجم ومقارنة مستوى نشاط الترجمة عندنا بالأرقام مع ما هو عليه في بلدان أخرى.
عبود عطية يتوقَّف هنا عند نوعية الترجمة وما يمكن أن تتكشف عنه، استناداً إلى مثل متطرف في تدهور نوعيته.

قبل أسابيع، عرضت إحدى الفضائيات العربية فلم «الفالس الأخير» للمخرج العالمي مارتن سكورسيزي. ويصوِّر هذا الفلم، بشكل شبه وثائقي، الاحتفال الأخير الذي أحيته فرقة الموسيقى الشعبية الأمريكية «ذي باند» في العام 1978م. ويكتسب أهميته من أنه جمع أكبر حشد من نجوم الغناء الشعبي في الغرب على مسرح واحد. وهو أمر لم يتكرر حتى يومنا هذا، وأيضاً من كونه خير معبِّر عما حصل من تحولات في الثقافة والفن والحياة الاجتماعية خلال الستينيات والسبعينيات في أمريكا والغرب عموماً.

لم تعلن فضائيتنا العربية عن المناسبة لإعادة عرض فلم ظهر قبل ثلاثين سنة. ولكننا علمنا أن محطات عديدة في أمريكا والعالم بأسره أعادت عرض هذا الفلم تحديداً للاحتفال بمرور ثلاثين سنة على ظهوره. كما أن المخرج نفسه أعاد إنتاج نسخة جديدة من الفلم ضمَّنها مشاهد لم تدخل في النسخة الأولى. أما فضائيتنا فقد اكتفت بتنفيذ توجيهات أو نصائح «القوميساريا الثقافية» بعرض هذا الفلم في هذا الوقت المناسب.. ولكن قضيتنا ليست هنا، بل في مكان آخر.

ترجمة لا تمت بصلة إلى الأصل

منذ اللحظات الأولى من متابعة هذا الفلم لاحظنا أن ترجمته إلى العربية كانت تتضمَّن أخطاءً كثيرة. وكثيراً ما ابتعدت عن المعنى الحقيقي، ومن ثم تمادت في رداءتها حتى لم تُبْقِ على أية علاقة مع الأصل!! وليس من باب إثبات ما نقول (وهو لا يصدق من دون إثبات)، بل أيضاً للغوص قليلاً في ذيول ما يترتب على الترجمة الرديئة، سنضرب مثلاً واحداً نختاره عشوائياً، وليس لأنه الأسوأ في الفلم.

يؤدي المغني وعازف الطبول ليفون هالم أغنية في هذا الفلم تدعى «ليلة أسقطوا ديكسي القديمة» وهي من أشهر أغاني الفرقة وأكثرها إثارة للجدل، لأنها تتحدث عن حال الجنوبيين المهزومين في الأيام الأخيرة من الحرب الأهلية الأمريكية في القرن التاسع عشر.

يقول المقطع الأول من الأغنية وفق الترجمة الصحيحة:

«اسمي فيرجيل كاين، وخدمت على قطار دانفيل،
إلى أن حضر خيَّالة (الجنرال) ستونمان ودمَّروا السكة ثانيةً،
في شتاء 65(18)، كنا جائعين، وبالكاد على قيد الحياة
وبحلول العاشر من مايو كانت ريتشموند قد سقطت
إنه وقت أذكره جيداً أيضاً
ليلة أسقطوا ديكسي القديمة...»

أما الترجمة التي قرأناها على الشاشة فتقول حرفياً ما يأتي:

«اسمي فيرجيل كينغ وخدمت في قطار
حتى هبّت عاصفة هوجاء وطلبوا منا
تصليح السكك

في شتاء سنة 1965 كنا نصطاد لنعيش
وفي وقتي كان الأثرياء قد سقطوا
إنه وقت أتذكره جيداً جداً
ليلة قتلوا ديكسي العجوز..

وبشكل عام، خلت «الترجمة» من أية إشارة تربط هذه الأغنية بالحرب الأهلية الأمريكية، طالما أن العام 65 (من القرن التاسع عشر) أصبح 1965، وطالما أن المترجم فهم من اسم المدينة ريتشموند «الأثرياء»، كما أن الجنرال ستونمان أصبح «عاصفة هوجاء».. وعلى هذا المنوال يتابع المترجم استهتاره بعمله وبنا، فيصبح الجنرال «روبرت إي. لي» قائد الجيش الكونفدرالي على يد المترجم «روبرتي لي الأسود»؟!! كما أن «ديكسي» وهو الاسم الذي أطلق خلال الحرب الأهلية على الولايات الجنوبية (ولا يزال مستعملاً حتى اليوم) ويعود في أصله إلى رقم 10 بالفرنسية (Dix) الذي طُبع على ورقة نقدية من فئة 10 دولارات في نيو أورليانز إبان الحرب، توهم المترجم الذي يتمتع بثقافة عامة تساوي صفراً مكعباً، أنه اسم رجل.

ثقافة تفريغ الثقافة

الفضائية العربية التي اتسم أداؤها (من خلال هذا الفلم على الأقل) بهذا الاستهتار المريع، وبهذه الخفة التي ما بعدها خفة، هي مجرد كبش محرقة لأنها ليست الوحيدة، ولا أسوأ من غيرها. ولكنها غير مظلومة لأنها ارتكبت فعلاً هذه الجناية الثقافية المحددة.

فخلال بحثنا على الإنترنت عن الكلمات الدقيقة لهذه الأغنيات (وهو أمر كان يمكن أن يلجأ إليه المترجم الذي يعاني من مشكلة في السمع إضافة إلى مشكلته مع الثقافة العامة)، اكتشفنا ما يدل بوضوح على الفرق الشاسع ما بين الثقافة من جهة وتفريغ الثقافة من جهة أخرى.

اكتشفنا مثلاً أن الجدال الذي ثار في صفوف الأمريكيين عند ظهور هذه الأغنية حول تعاطف الأغنية مع الجنوبيين الكونفدراليين، وبقاء هذا الحنين حتى يومنا هذا.

واكتشفنا أن مؤرخين ناقشوا اتهام خيالة الجنرال ستونمان بتخريب سكة الحديد في الأيام الأخيرة من الحرب الأهلية الأمريكية، لأن الجنرال المذكور كان في الأشهر الأخيرة من الحرب قد انكفأ عن أي عمل عسكري مهم.

وناقش آخرون ربط سقوط مدينة ريتشموند بالعاشر من مايو، لأن المدينة كانت قد سقطت فعلاً قبل ذلك بأسابيع.. وغير ذلك الكثير الكثير من النقد والجدال والتقدير الذي انطلق قبل أكثر من ثلاثين سنة ولا يزال مستمراً حتى اليوم.

أما عندنا، فإن الاعتماد على الترجمة كما قدمتها الفضائية العربية التي تقدِّم حتى بعض برامجها المحلية بالانجليزية، يبقينا كما يقول المثل: «مثل الأطرش في الزفة». لا معلومة تبقى في الأذهان، ولا فكرة حول موضوع القصيدة، وطبعاً لا ردة فعل عاطفية طالما أن الكلام الذي قرأناه على الشاشة أشبه بالهذيان الذي لا معنى له على الإطلاق.

إنها حالة متطرفة جداً من حالات الترجمة المنحطة التي تحوِّل المعلومة أو الفكرة إلى مجرد كلام لا معنى له.

طبعاً هناك جهود مشكورة في الترجمة. ولكن إلقاء نظرة عامة عليها، يظهر أنها تبقى محصورة ضمن دوائر ضيقة وصغيرة جداً، وغالباً ما تكون أكاديمية الهوية والإنتاج.

أما على صعيد الثقافة العامة ووسائل نشرها في المجتمع، فإن حالة الفضائية العربية هذه ليست استثناءً رغم فجاجة فضيحتها. فالكتب والروايات والأفلام السينمائية تتعرض كلها على أيدي عشرات ومئات المترجمين إلى العبث. ولا مجال هنا لإعطاء أمثلة محددة في هاتين الصفحتين، لأن كوارث الترجمة في أي من روايات دان براون التي عرفت رواجاً شعبياً كبيراً على سبيل المثال تملأ مجلداً كاملاً، منها ما هو مقزز، ومنها ما هو مضحك في أعمال يخرِّب الضحك المزاج العام الذي يفترض بهذه الأعمال أن تشيعه.

بعبارة أخرى، لقد تجاوز تدهور نوعية الترجمة الخطوط الحمر. وعلى هؤلاء المستهترين بعمل يفترض القيام به إحساساً بالمسؤولية إضافة إلى الدراية المهنية والثقافة العامة، أن يعلموا أنهم باتوا يدمرون مورد رزقهم.. لأن الأداء، في الترجمة كما في أي مجال آخر، إذا انحدر إلى مثل هذا المستوى من الرداءة، يجعل غيابه أفضل من وجوده.

فهل سيأتي يوم يصبح فيه غياب الترجمة أفضل من وجودها؟

البطارية

مارد الطاقة داخل القمقم

قد لا تمثل صناعة البطاريات على صعيد الاقتصاد العالمي أكثر من جزء ضئيل مما تمثله صناعة النفط والغاز. ولهذا السبب، قلَّما تحظى البطارية بالاهتمام الذي تستحقه، على الرغم من أنها جزء لا يتجزأ من عالم الطاقة ككل.

ميشيل حنَّا* يطلعنا على عالم هذه الطاقة المحبوسة داخل القمقم الصغير، والدور المتعاظم الذي باتت تلعبه في حياتنا اليومية، حتى صار ارتباط تطورنا ورفاهيتنا بالبطارية لا يقل متانة عن حالنا مع مصادر الطاقة الأخرى، وأهمها بالطبع الزيت والغاز.

* كاتب من مصر



ليس من المبالغة في شيء القول إننا لو حذفنا البطاريات من الوجود، لتغيرت حياتنا رأساً على عقب. فإلغاء البطارية، يعني إلغاء الهواتف النقالة، وأجهزة الكمبيوتر المحمولة، والساعات العاملة على رقائق الكوارتز، وكل أجهزة التحكم عن بعد، وأجهزة الراديو والموسيقى المحمولة، والمصابيح اليدوية... ومثل هذه الخسارة الأكبر من أن نتحملها، تهون أمام موت الأقمار الصناعية وانقطاع الاتصالات عبرها، وتوقف أجهزة «البايسمايكر» التي يعتمد عليها نبض القلوب الضعيفة، وعجز السيارات والطائرات عن الإقلاع، إلا إذا وجد مصنعوها طريقة لإشعال الوقود بعيدان الكبريت!

إن تشغيل مصنع واحد لصهر الحديد قد يتطلب طاقة توازي أو تزيد على كل الطاقة التي يستهلكها العالم من خلال البطاريات. ولكن تلك الكميات الصغيرة من الطاقة المبعثرة داخل حاويات صغيرة متعددة الأشكال والوظائف أصبحت ذات دور لا غنى عنه في حياة الإنسان، ويوازي في أهميته أهمية أكثر الصناعات حيوية. وقبل الوصول إلى عالم البطاريات اليوم، نتوقف للحظة أمام تاريخها، وأنواعها الأساسية.

تاريخ البطارية

يعود تاريخ البطارية إلى العام 1771م عندما وجد عالم التشريح الإيطالي لويجي جالفاني أن عضلة ساق الضفدعة المقتولة حديثاً تنقبض إذا تم لمسها بواسطة فلزين مختلفين متصلين ببعضهما، وقد فسَّر جالفاني الأمر تفسيراً خطأً، حيث ذكر أن عضلات الضفدع تحتوي على كهرباء سماها الكهرباء الحيوانية! بعد ذلك أتى أليكساندرو فولتا ليوضح أن تفاعلاً كيميائياً حدث في المادة الرطبة التي تحتوي عليها عضلة الضفدع، فسار تيار كهربي بين الفلزين، ثم كرر التجربة عام 1799م، فاستبدل محلولاً من الملح بعضلة الضفدعة، واستخدم أقراصاً من الفضة وأقراصاً من الزنك وصّلها على التوالي، ليحصل على أول بطارية في التاريخ.

إلا أن فولتا لم يدرك أن فرق الجهد الكهربي قد تولد من تفاعل كيميائي، وكان يظن أن بطاريته هي مصدر لا ينفد للطاقة، لكن التفاعل كان مرهوناً بتوفر المتفاعلات كما بيَّن مايكل فارادي عام 1830م.

عام 1836م ظهرت بطارية دانيال التي طوَّرها الكيميائي الإنجليزي جون فريدريك دانيال، ليتلافى الكثير من عيوب بطارية فولتا، حيث استخدم عموداً من الزنك وغمسه في وعاء مسامي يحتوي على محلول من كبريتات الزنك، ثم غمر هذه المجموعة كلها في وعاء من النحاس يحتوي على محلول من كبريتات النحاس، وقد أعطت هذه البطارية تياراً أفضل بكثير من أسلافها. استُخدِمَت بطارية دانيال بعد ذلك على نطاق واسع في عالم ما قبل الشبكات الكهربيّة، وكان من أبرز مجالات استخدامها التلغراف الكهربائي.

لكن هذه البطاريات التي كانت تعتمد على المحاليل السائلة الموضوعة في أوانٍ، كثيراً ما كانت تنسكب وتتسرب أو تتكسر أوعيتها، مما يجعها غير مناسبة إطلاقاً للأجهزة المحمولة. وهكذا، وقرب نهاية القرن التاسع عشر، كانت الطريق قد مهدت لظهور البطارية الجافة. فتم التخلص من المحاليل السائلة واستخدام عجينة صلبة بدلاً منها، لتصبح البطاريات مناسبة أخيراً للأجهزة المحمولة.

وقبل أن يأفل القرن التاسع عشر، وتحديداً في العام 1896م، طرحت «شركة الكربون الوطنية» الأمريكية أول بطارية للبيع في الأسواق. وهي الشركة التي أصبح اسمها لاحقاً «إيفيرريدي» وتعرف اليوم عالمياً باسم «إنرجايزر».

وبعد ذلك بسنتين طرحت الشركة نفسها البطارية الشهيرة ذات القياس الذي يرمز إليه بحرف (D) للاستخدام في المصابيح اليدوية. ولا تزال هذه البطارية تنتج بالمقاييس نفسها حتى اليوم.

وفي العام 1906م، شهدت ولاية ويسكونسن الأمريكية تأسيس عملاق آخر في صناعة البطاريات: «شركة البطارية الفرنسية»، التي غيَّرت اسمها في العام 1934م إلى الاسم الذي نعرفه جميعاً «رايوفاك».

أنواع وأنواع
القابل للشحن وغير القابل

يصيبنا العجب من كثرة أشكال البطاريات وأنواعها: كبيرة وصغيرة، رفيعة وسميكة، مستديرة ومربعة ومستطيلة، بل وذات أشكال غير منتظمة أيضاً! ويتساءل المرء عن السبب في كل هذه الأشكال والأحجام. ولاشك أن حجم البطارية وقوتها يجب أن يتناسبا مع حجم الجهاز وكمية الطاقة التي يتطلبها تشغيله، لكن بعض البطاريات ذات الأشكال الفريدة والغريبة توحي إلينا بإمكان وجود اتفاقات معينة بين الشركات المصنِّعة للأجهزة وشركات تصنيع البطاريات، وذلك لصنع بطارية فريدة من نوعها حتى يضطر المستخدم لشرائها هي بالذات، في نوع من اتفاقات المصالح المشتركة التي تعظم أرباح الشركات وتسحب الأموال من جيوب المستهلكين.

البطاريات أنواع لا تُحصى تختلف أعمارها.. وتتباين أوجه استخدامها

هناك عدد من التصنيفات للبطاريات، لكن الشائع تقسيمها إلى بطاريات غير قابلة لإعادة الشحن، وتسمى أحياناً «البطاريات الأولية»، وأخرى قابلة لإعادة الشحن، وتسمى «البطاريات الثانوية».

يُستخدم النوع الأول مرة واحدة قبل التخلص منه، لأن البطارية تستهلك الكيماويات الموجودة بداخلها في تفاعل كيميائي غير قابل للعكس، أما النوع الثاني فالتفاعل الكيميائي الذي يحدث بداخله قابل للعكس عند تمرير تيار كهربي في البطارية أثناء عملية الشحن، وذلك في عكس الاتجاه الذي يتولَّد فيه التيار الكهربي داخل البطارية، ويمكن إعادة شحن هذا النوع من البطاريات لعدد معين من المرات قبل أن تبلى وتصبح غير قابلة للاستخدام.

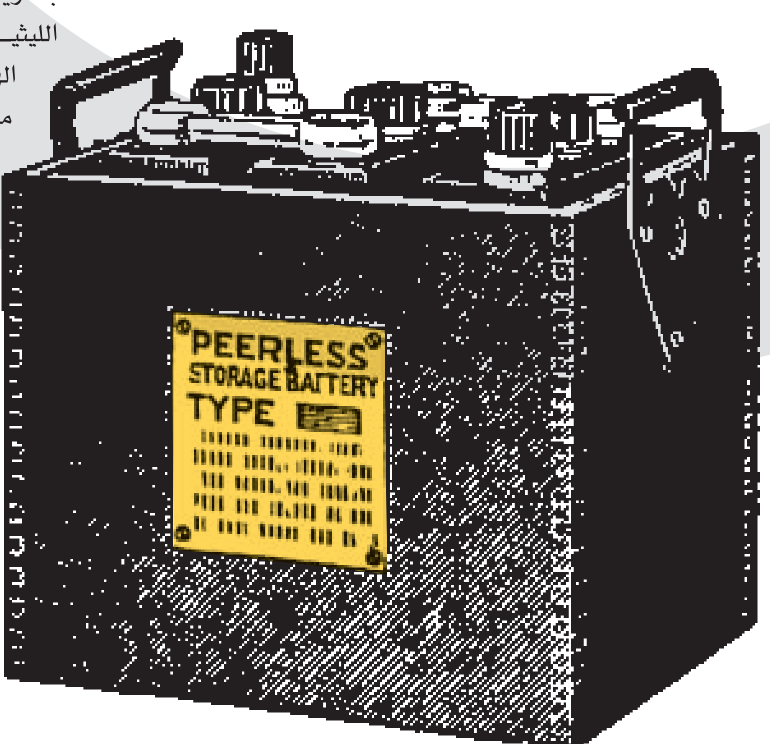
إن أقدم أنواع البطاريات القابلة لإعادة الشحن التي ما زالت تستخدم حتى الآن هي بطارية السيارة، المعروفة أيضاً بـ«بطارية الرصاص - الحمض» (lead-acid battery). وتعطي هذه البطارية قوة عشرة آلاف وات، وتياراً كهربائياً يراوح بين 45 و1100 أمبير. وهناك أنواع حديثة من هذه البطاريات تحتوي على هلام (جيل) بدلاً من سائل المحلول، أو على ألياف زجاجية (فايبر جلاس) مشبعة بالملح، وذلك لتجنب مشكلة انسكاب السائل.

أما البطاريات الجافة القابلة لإعادة الشحن فمنها بطارية النيكل كادميوم، التي حلَّت محلها بطاريات الليثيوم الأكثر كفاءة بكثير، والتي تستخدم اليوم في كل الهواتف المحمولة وأجهزة اللابتوب. أما أحدث نوع من هذه البطاريات فهي بطاريات يطلق عليها خلايا اليو إس بي USBCELL، والجديد أنها تحتوي على شاحن داخلي، ويمكن وصلها بأي منفذ USB في الكمبيوتر لشحنها دون الحاجة إلى شاحن.

سنلقي الآن نظرة على أشهر أنواع البطاريات الأولية والثانوية.

أنواع البطاريات الأوليّة

- **بطارية الزنك والكربون**: بطاريات متوسطة الكلفة، تستخدم في مختلف الأجهزة العادية، كأجهزة الراديو وكشّافات الإضاءة الصغيرة مثلاً.
- **بطارية كلوريد الزنك**: شبيهة بالنوع السابق لكن عمرها أطول قليلاً.





Corbis

- **البطارية القلوية (الكالاين)**: أطول عمراً بكثير، وتستخدم في الأجهزة ذات الاستهلاك الكثيف للطاقة.
- **بطارية أكسيد الزنك**: وهي البطاريات المستديرة الصغيرة التي تستخدم في ساعات اليد والآلات الحاسبة وغيرها.
- **بطارية الليثيوم وثاني كبريتيد الحديد**: وهي البطاريات المستخدمة في بعض أنواع الكاميرات. عمرها طويل جداً قد يصل إلى سنوات عشر، إلا أنها غالية السعر.
- **بطارية الليثيوم - كلوريد الثيونيل**: وتستخدم في التطبيقات الصناعية، وفي أجهزة القياس الحساسة، وهي غالية نسبياً وذات عمر طويل.
- **بطارية الزئبق**: كانت تستخدم في السابق في الساعات الرقمية وأجهزة المساعدة على السمع، إلا أن استخدامها أصبح محدوداً بسبب سُمِّيتها.
- **بطارية الزنك - الهواء**: وتستخدم في أجهزة المساعدة على السمع.
- **البطارية الحرارية**: وتستخدم في التطبيقات العسكرية فقط.
- **بطارية الماء المحفَّز**: وتستخدم في الأجهزة التي تستخدم في الأرصاد الجوية.
- **بطارية أوكسي هايدروكسيد النيكل**: وتستخدم في الكاميرات الرقمية، وعمرها أطول مرتين من البطاريات القلوية.
- **البطارية الورقية**: وهي أحدث ما ظهر في عالم البطاريات، وقد تم التوصّل لها في أغسطس 2007م، وهي بطارية رفيعة جداً كالورقة، ويمكن طيّها ولفّها وتقطيعها لتأخذ أشكالاً مختلفة، وبسبب وزنها الخفيف وتكلفتها الرخيصة، فمن المتوقع أن تأخذ هذه البطارية مكانها سريعاً في عالم الإلكترونيات.

أنواع البطاريات الثانويّة

- **بطارية النيكل كادميوم**: وهذه البطاريات تفقد جزءاً من قوتها إذا تم شحنها، وما زال بها جزء من الطاقة، ولهذا يجب تفريغها بالكامل قبل إعادة الشحن، كما أنها لا تدوم طويلاً. كانت تستخدم قديماً في أجهزة الموبايل.
- **بطارية هايدرايد معدن النيكل**: تدوم أربع مرات أطول من بطارية النيكل كادميوم.

- **البطارية القلوية القابلة لإعادة الشحن:** مثل البطارية القلوية العادية، إلا أن التفاعل الكيميائي بداخلها قابل للعكس.
- **بطارية الليثيوم:** ويطلق عليها أحياناً بطارية أيون الليثيوم، وهي البطارية الشائعة حالياً في أجهزة الموبايل واللابتوب، وهي من أكثر أنواع البطاريات انتشاراً اليوم. تتميز بخفة وزنها وبأنها تدوم طويلاً. إلا أن بها عيباً غريباً، هو أن عمرها يعتمد أيضاً على تاريخ تصنيعها (إضافة إلى عدد دورات الشحن والتفريغ). فبطارية اللابتوب الجديدة مثلاً تفقد حوالي 20% من سعتها كل سنة.

تمثِّل الآثار البيئية للبطاريات المستهلكة تحدياً ضخماً نظراً لكميات المعادن السامة التي تحتويها

محاذير ومتاعب بيئية

يمكن للبطاريات أن تنفجر إذا أسيء استخدامها، أو إذا كان بها عيب في التصنيع. ويحدث هذا عند محاولة شحن بطاريات غير قابلة للشحن. وحتى البطاريات القابلة لإعادة الشحن، فبإعادة شحنها بمعدل زائد، يتكون بداخلها خليط من غازي الأوكسجين والهيدروجين، يؤدي بدوره إلى زيادة الضغط داخلها واحتمال انفجارها، أو إلى انطلاق الحمض من داخلها إلى الخارج.

أما الآثار البيئية للبطاريات المستهلكة فتمثل تحدياً ضخماً نظراً لكميات المعادن السامة التي تحتويها مثل الزئبق والكادميوم والرصاص. وإلقاء البطاريات في صناديق القمامة العادية يعني إرسالها إلى الأفران حيث تحرق لتنفث غازاتها السامة والمسرطنة في الهواء. ولذا أصبحت في الدول المتقدِّمة مصانع خاصة لإعادة تدوير البطاريات، فيعاد استخراج معادنها الثمينة لإعادة استعمالها مرة ثانية، والتخلص من الغازات والسوائل السامة بطرق سليمة وفق ما تقتضيه القوانين الخاصة بهذا الشأن. ولإدراك ثقل المسألة البيئية في عالم البطاريات، نشير إلى أن الأمريكيين يشترون سنوياً حوالي 3 مليارات بطارية. وكل أمريكي يتخلص من 8 بطاريات جافة كل عام.

نمو الصناعة وأرقامها

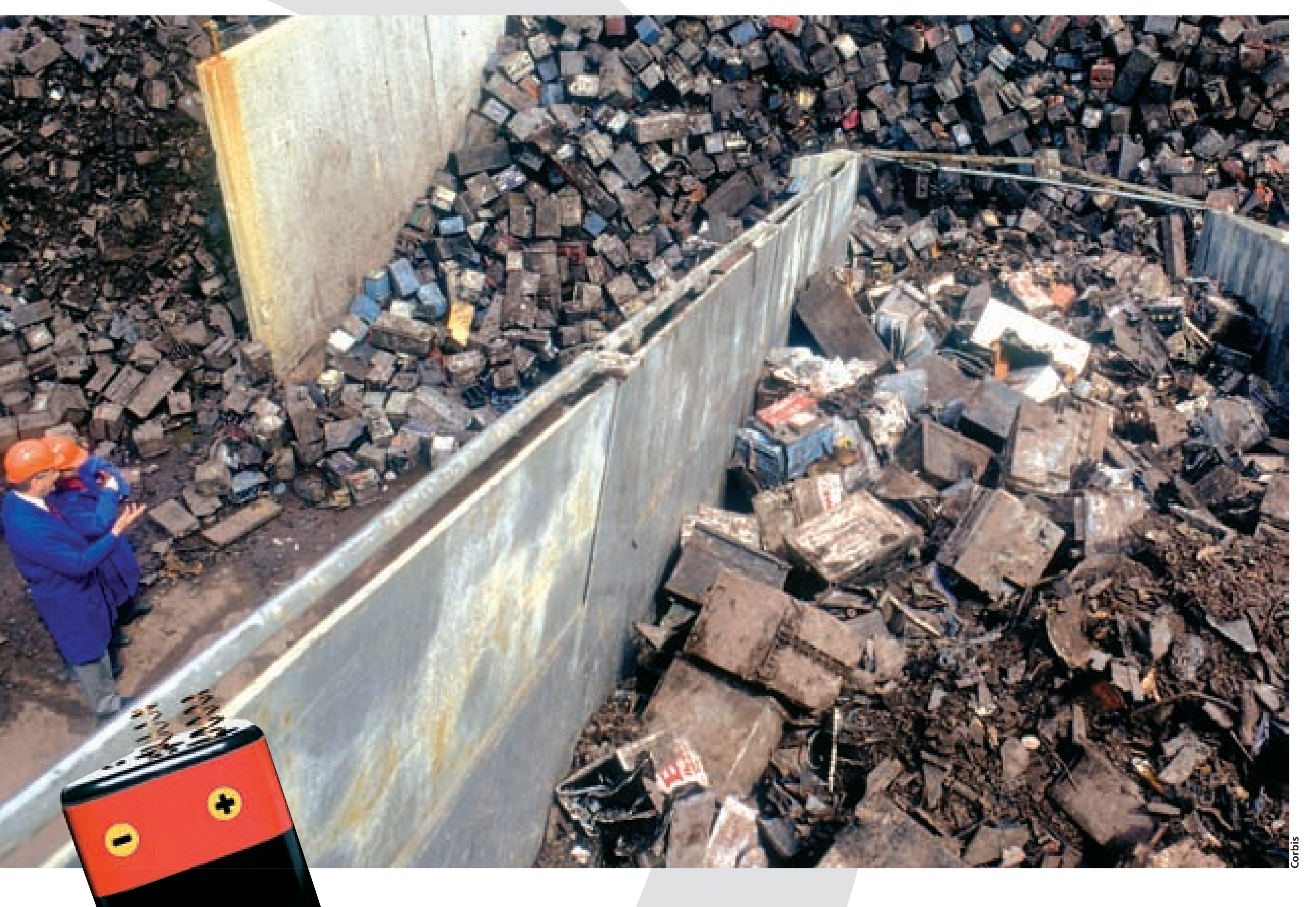
بصمت، كما هو أداء البطارية، تنمو صناعة البطاريات في العالم بسرعة صاروخية توازي التضخم في عدد الأجهزة الكهربائية المحمولة التي تغرق الأسواق أكثر فأكثر. والمصانع التي تأسست قبل نحو قرن ونصف قرن تشهد منذ سنوات قليلة نمواً سنوياً وضعها في مصاف الشركات العملاقة عابرة القارات.



البطاريات قبل الجهاز

يعرف مستهلكو الإلكترونيات أينما كانوا في العالم، أنهم اضطروا في وقت من الأوقات لإبدال هواتفهم النقالة التي كانت صالحة للعمل، بأخرى أحدث منها، لأن بطارياتها لم تعد صالحة لإعادة الشحن، كما أن مصانع البطاريات أوقف إنتاج هذه الطرز منها.

وتتخذ المشكلة التي لا تزال قائمة حتى اليوم، بعداً كافياً لجر بعض منتجي الإلكترونيات وموزعيها إلى القضاء. وخاصة في عالم آلات التصوير الرقمي. إذ إن بعض الشركات تصمم لكل طراز من طرزها بطاريته الخاصة. والأخطر من كل ذلك هو أن بعضها يصنِّع بطارية واحدة لكل آلة تصوير، (أو أن الموزعين لا يستوردون غير بطارية واحدة لكل آلة). وبالتالي فإن عمر آلة التصوير ذات الثمن الباهظ بات مرهوناً بعمر البطارية القصير الذي لن يزيد على سنتين أو ثلاث سنوات. ولذا، يمكن للمستهلك أن يستفسر عن توافر البطاريات البديلة في الأسواق، ويضمن استمرار توافرها، حتى قبل أن يسأل عن مواصفات الآلة بحد ذاتها. ولعل في الإحجام عن الشراء في حال عدم الاطمئنان إلى مستقبل الطاقة اللازمة للآلة، ما قد يثني المصنِّعين عن هذا التسويق القسري لمنتجات قصيرة العمر.



Corbis

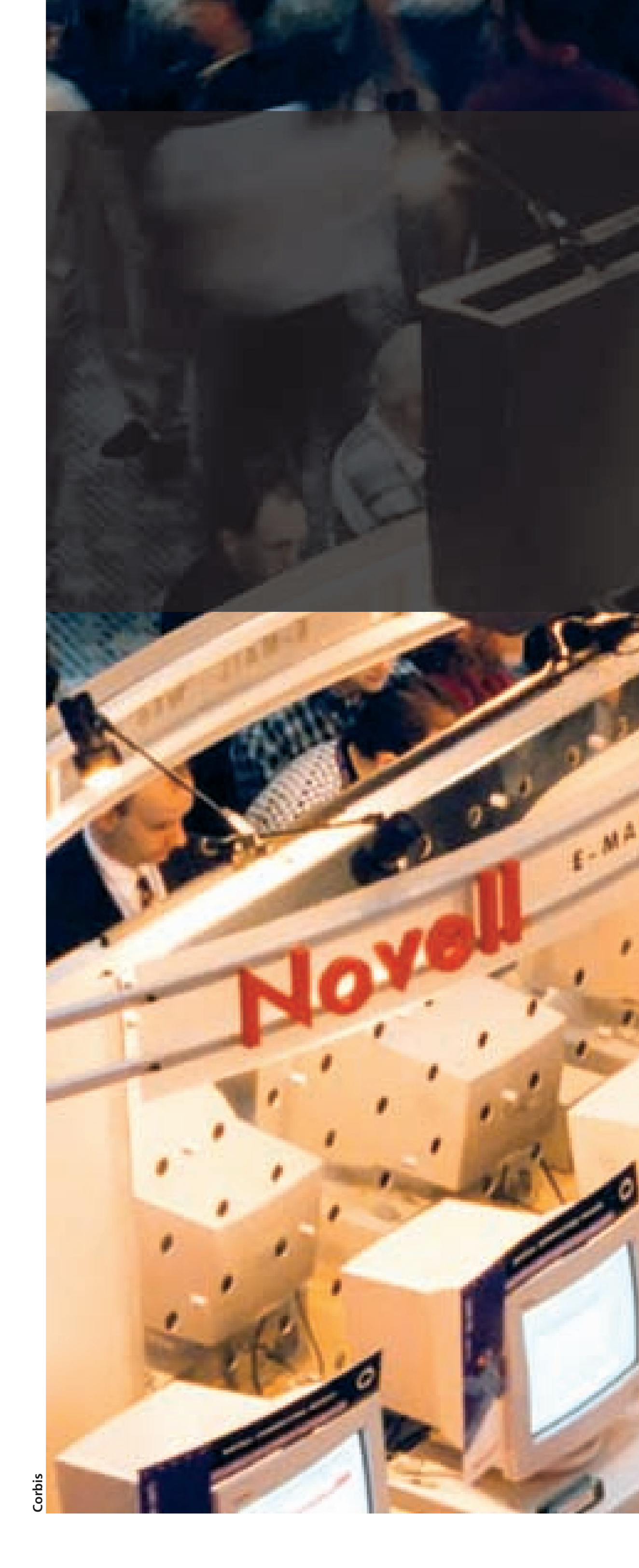
فالتقرير السنوي لشركة «إنرجايزر» يشير إلى أن مبيعات الشركة للعام الماضي 2007م بلغت 3.365 مليار دولار، ووصلت أرباحها إلى 321 مليون دولار. في حين أن شركة «دوراسيل» القائمة أساساً على تسويق البطاريات القلوية، وتأسست في عام 1964م من خلال مصنع واحد، باتت تدير اليوم 10 مصانع على مستوى العالم إضافة إلى مصانعها العديدة المجمعة في ولاية كونكتيكت الأمريكية. وبلغت مبيعاتها الصافية للعام الماضي 2.57 مليار دولار. أما «رايوفاك» التي اشترت شركة «روف» في العام 1999م، وشركة البطاريات الأوروبية «فارتا» سنة 2002م، ومن ثم «ريمنغتون» في العام التالي، فاستمرت في التوسع وابتلاع الشركات الأصغر، ومنها شركة «نينغهو باوانغ» الصينية و«ميكروليت» البرازيلية، و«الصناعات المتحدة» الأمريكية، لتصبح عملاقاً عالمياً غيَّر اسمه من «رايوفاك» إلى «سبكتروم براندز».

وأخيراً وللدلالة على نمو صناعة البطاريات، كما نشهد اليوم ونتوقع له خلال السنوات القليلة المقبلة، نشير إلى أن شركة «آيباور للإلكترونيات» التي تأسست في العام 2002م في الصين حيث يوجد نحو 280 مصنعاً آخر للبطاريات، وتختص بإنتاج بطاريات الأجهزة الإلكترونية المحمولة، كانت قد باعت في العام 2004م، نحو 7 ملايين بطارية، غير أن هذا الرقم قفز في العام 2007م إلى 20 مليون بطارية!!

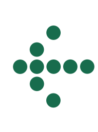


من خلال الإنترنت

تجَّار وتجارة مربحة من دون متاجر

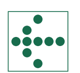


Corbis



لم يعد عبء استئجار المتجر واختيار موقعه الملائم عقبة أمام طموح شخص ما يحلم بأن يصبح تاجراً. إذ بات بإمكانه اليوم أن يكتفي بشاشة كمبيوتر موصول بشبكة الإنترنت لكي يتمكن من تأسيس تجارته ويوزِّع بضائعه على أنحاء العالم كافة من غرفة نومه.

الكاتبة الاقتصادية بهاء الرملي تعرض هذا النمط الجديد من التجارة الذي ما فتئ ينمو ويتوسع منذ أن ظهرت الشبكة العنكبوتية قبل سنوات معدودة، وبات يوفِّر مجال عمل جديد للملايين حول العالم.



هل تعانون ضائقة مالية؟. هل عملكم غير منتج أو غير مستقر؟. هل صرفتم من العمل؟ هل تبحثون عن فرصة عمل لم تتوافر بعد؟ هل تتطلعون إلى تحسين وضعكم المالي والاجتماعي أو إلى التفرغ لعمل أكثر مردوداً؟

أسئلة مستوحاة من الواقع اليومي غير المريح لملايين الأشخاص حول العالم. ولكن عشرات الألوف منهم وجدوا أخيراً ضالتهم في الإنترنت وتمكنوا عبره من طي صفحات صعبة في حياتهم المهنية والاجتماعية، ليفتحوا أخرى حققت لهم أحلامهم في النجاح والثروة والشهرة.

منذ انطلاقتها في أوائل العقد الأخير من القرن الميلادي الماضي، اخترقت ثورة الاتصالات كل الحواجز والحدود في التواصل والجغرافيا وفتحت الأفق أمام أي شخص قادر على التعامل مع تكنولوجيا المعلوماتية، لترويج فكرة أو خدمة أو سلعة في محيطه أو في أي مكان من العالم.



المحترف السعودي ع.ص.

نمو التجارة الإلكترونية

وتشير الأرقام المتوافرة عن هذا الموضوع إلى نمو مستطرد في عدد الأشخاص الذين يستخدمون تقنية المعلوماتية ويدخلون إلى شبكة الإنترنت لأغراض مختلفة، منها عرض الخدمات وطلبها أو البيع والشراء إلخ... وجاء في تقرير عن التجارة الإلكترونية حول العالم أعده مركز الدراسات البريطانية «OVUM»، أن نحو مليار ونصف المليار شخص في العالم كانت لديهم اشتراكات للدخول إلى الإنترنت عام 2007م، لدى أكثر من ثلثهم اشتراكات للدخول إلى الإنترنت السريع، وتوقع المركز أن يفوق عدد الصينيين المشتركين فيه عدد الأمريكيين، وأن يكون 21 في المئة من المنازل في الصين مزوَّداً بهذه الخدمة بحلول عام 2012م، كل ذلك فيما كانت الصين تعد التجارة الإلكترونية ضرباً من الخيال، وتكتفي بمراقبة هذه التجارة تشق طريقها في الغرب في أواسط التسعينيات.

وبسرعة قياسية بدأ حجم التجارة الإلكترونية ينمو في كل أنحاء العالم مثل كرة الثلج، إذ يتوقع أن يصل في 2012م إلى تريليون دولار وأن تبلغ قيمة تجارة التجزئة الإلكترونية في أوروبا مثلاً 263 مليارًا في 2011م. وتقدِّر إحدى الدراسات أن يرتفع بنسبة 17 في المئة كل سنة على مدى السنوات الخمس المقبلة، عدد الأمريكيين الذين يزورون مواقع البيع بالتجزئة عبر الإنترنت للتزود بمعلومات عن أية سلعة قبل التوجه إلى المتجر لشرائها. وفي الصين قدِّر عدد مستخدمي مواقع التجارة الإلكترونية عام 2007م بنحو خمسين مليوناً، وتخطت قيمة المبيعات عبر الشبكة فيها قيمة مبيعات المؤسسات العملاقة بالأسلوب التقليدي، كذلك تخطت قيمة الدفع الإلكتروني ذلك المسجل ببطاقات الائتمان، فتفوقت الصين بذلك على الغرب الذي ما زالت بطاقة الائتمان فيه تعتبر العمود الفقري للنظام التجاري. وإذا كانت المؤسسات المتوسطة والصغيرة هي الوسيلة الفضلى لربط المستهلك بالمنتج أو البائع عبر الإنترنت، فقد تمكنت المؤسسات الصينية من تطوير مواقع مختلطة تتيح للمستهلك الحصول على طلبه من بائعي جملة أو مؤسسات صغيرة وحتى من بائعين صغار يتعاملون مع سلع ومنتجات خاصة ومحددة.

وفــي بريطانيا قدَّرت إحدى الدراســات أن تصل عوائد البيع علــى الشبكة إلى 300 مليار جنيــه استرليني في عام 2018م مقابـل 53 مليــاراً في عام 2007م مشيرة إلــى ارتفاع الطلب على مواقع التجزئة الصغيرة لاسيما في موسم الأعياد لشراء الهدايا، بفضل أسعارها المتنافسة وارتفاع نسبة الأمان على الشبكة. وعدَّت ذلك مؤشــراً إلى أن التجارة العادية مرشحة للاختفاء تماماً في هذا البلد في غضون عقد من الزمن.

ولم تتخلَّف هونغ كونغ عن اللحاق بهذه الموجة الجامحة، إذ تشير التقارير الاقتصادية إلى ازدهار ظاهرة التجارة عبر الإنترنت عمومــاً وإلى توسعها خصوصاً في صفوف أفراد هدفهم زيادة دخلهم. وتشير إحــدى الدراســات إلى أن عشــرات الألوف يعتمدون علــى الإنترنت للحصول على دخل إضافي، ويعتمد عليه ألوف آخرون مصدراً أساسيــاً للدخل، ولفتت إلــى أن نحو عشرة في المئة ممن يزاولون البيع عبر موقع «إي. باي» للمزادات يفكِّــرون في ترك أعمالهم للتفرغ للبيع عبر الشبكة.

فورة في العالم مع تحوّل التجارة إلى التبادل عبر شبكة الإنترنت... والعالم العربي غافل عنها!

هــذه أمثلة قليلــة ومنتقاة عما يجري فــي العالم من تهافت علــى التجــارة الإلكترونية، ومــن ضمنها البيــع على نطاق الأفراد وعبر مواقع متخصصة صغيرة. لكن السؤال الكبير يبقــى أيــن العالم العربــي من هذه الفــورة التــي يتوقع أن تغيِّــر مجرى الأعمال التجارية كما بينــت الدراسة في شأن بريطانيا؟

حالها في البلاد العربية

في الواقع لا تزال هذه التجارة ضعيفة جداً في مجمل الدول العربيــة، وتنحصــر فيها علــى نطاق محــدود لأسباب عدة أبرزها، ضعف انتشار استعمال الحاسوب عموماً والإنترنت خصوصــاً علــى نطــاق شعبــي، وضعــف البنيــة التحتيــة للتجارة الإلكترونية في النظــام المصرفي وبطاقات الدفع الإلكترونــي ونظم الأمان على الشبكة، وشبه غياب التشريع الذي ينظِّم التعامل الإلكتروني ونظام الجرائم المعلوماتية في معظم الدول العربيــة، بالإضافة إلى ارتفاع كلفة دخول الشبكــة في لبنان على سبيــل المثال. وتعد دولــة الإمارات العربية المتحــدة والمملكة العربية السعوديــة أكثر دولتين تقدمــاً ونمواً في أسواق الإنترنت العربية. ففي المملكة قدِّر عدد مستخدمي الإنترنت بأربعة ملايين و800 ألف شخص عام 2006م ويتوقع أن ترتفع وتيرة استخدامها كلما تقدَّمت نظم الأمان، وأن تزداد معها تالياً أعمال التسوق الإلكتروني واستطــراداً عــدد المواقــع، مــع الإشــارة إلــى أن التجارة الإلكترونيــة بــكل مستوياتها لــم تتقدم وتنمُ فــي العالم إلا متلازمة مع تطور نظــم الأمان، إذ لا تبادل من دون تنظيم وأمان يوفران بدورهما الأرضية والمناخ الملائمين للتجارة الإلكترونية.

متسع لصغار الباعة

لكــن كيف يمكن لصغــار الباعة الراغبين فــي دخول عالم التجــارة الإلكترونيــة أن يجــدوا لهم مكاناً فــي زحمة كبار اللاعبيــن في هــذا المجال؟ قــد تكون الأرقــام التي وردت سابقــاً عن النتائج فــي هونغ كونغ تؤكد قــدرة أي كان على الوصول إلــى مبتغاه إذا كان لديه نتــاج أو سلعة يريد بيعها وثمة طلــب عليها. في الواقــع ليس الأمــر مستحيلاً بوجود مواقــع عالميــة متخصصــة ببيع حيــز إعلانــي أو تسويقي لصغــار الباعة، أو بتأجيرهم مساحة للبيع من خلالها لقاء مبالــغ تــراوح بيــن 40 و100 دولار في الشهــر وعمولة على البيــع تراوح بيــن أقل من واحــد و7 في المئــة. وقد أتاحت هذه الخدمات المجال واسعاً لكثير من صغار التجار تخطي عجــز الموازنات الإعلانية الضخمــة التي يتمتع بها الكبار، وازدهــرت أعمالهــم وارتفعــت نسبتهــم إلى 32 فــي المئة فــي العاميــن الأخيرين في الولايــات المتحــدة الأمريكية. وبدأت تنشــأ في المنطقة العربية مواقــع تجارية تتيح هذه الخدمات.

وتزدحم على شبكة الإنترنــت مواقع متخصصة في إسداء النصــح لمــن يرغــب فــي المتاجرة عبــر الشبكــة، فتشير بأسلوب تصميم موقع وطرق التسويق واختيار أنواع البضائع التي يمكــن أن تلاقي رواجاً أكثر من غيرها على الشبكة مع مراعاة سهولة نقلها وكلفته وطريقة التسليم.

ما على البائع أن يأخذه في الحسبان

في هــذا الإطار ثمة ثابتة تقــول إن كل شيء يمكن بيعه عبر الإنترنت من الإبرة إلى الطيارة، لكن يبقى لكل سلعة أو منتج خصوصيتــه، ويبقى علــى كل بائع أن يعــرف قدرته العملية واللوجستيــة وأن يعمل علــى أساسها. وفــي كل الأحوال ثمة قواعد ينصح الخبراء بالتقيد بها، أولاً: فيما يتعلق بتصميم موقع ناجح قادر على جلب الزبائن، ومن أبرز العناصر:

- تبويــب السلع في الموقع ليسهل على المتصفح إيجاد ما يبحث عنــه، تماماً كما تفرز الأغراض وترتب في متجر واقعي.
- تضمين الموقع صوراً للسلع المعروضة للبيع تبرز جمال السلعــة وأدق تفاصيلها ليتمكن المشتــري المفترض من تكوين فكرة صحيحة عنها.
- وضع الشروح التفصيلية اللازمة عن السلعة ومواصفاتها ومكوناتها وسعرها وغير ذلك.

ثانياً: فيما يتعلق باختيار السلعة. صحيح أن بعض المنتجات ملائــم أكثــر من غيــره للبيع عبــر الإنترنت، مثــل الألعاب

والحواسيب والأدوات الإلكترونية والكهربائية والأثاث والكتب، إلا أن ذلك لا يعني أنه لا يمكن بيع أي شيء آخر شرط أن يكون مطلوباً لدى الزبائن وأن يكون البائع قادراً على الترويج له بطريقة تنافسية. وفي هذا الإطار يفضل أن يفكر البائع بتوفير الآتي:

- اختيار سلعة شعبية يكون واثقاً من أنه قادر على بيعها إذا قرر التعامل مع موقع تجاري، وإذا لم يكن واثقاً، عليه إجراء دراسة خاصة لمعرفة ما إذا كان قادراً على جذب أكبر نسبة من المشترين إذا وجدت سلع منافسة لسلعته، أو اختيار سلع المنافسة فيها أقل.
- أن يأخذ في الحسبان القدرة على توفير السلع المطلوبة باستمرار والتيقن من القدرة على التسليم الفوري والتزام المواعيد المتفق عليها سواء مباشرة أو بالبريد.
- التيقن من أن كرَّاسات التسويق (الكاتالوجات) تظهر حقيقة السلع المعروضة.
- اختيار سلع تتمتع بخصوصية.

التجارة الإلكترونية فرصة للمرأة العربية المحافظة للعمل من بيتها وكسب عيشها

وكما أن هناك سلعاً لها أفضلية للبيع على الإنترنت، ثمة أنواع أخرى من السلع ينصح بعدم إدراجها على الشبكة، ومنها:

- سلع يمكن الحصول عليها من أقرب متجر بمواصفات مماثلة وبسعر مماثل أو ربما أرخص.
- سلع لا تدوم طويلاً أو تتلف بسرعة وتتطلب شروط شحن خاصة أو ربما تكون الحاجة إليها فورية.

وفي مطلق الأحوال ثمة قاعدة ذهبية في التجارة تقول، بقدر ما تكون منافساً بقدر ما توفر الوقت والمال للنجاح.

يبقى على البائع أن يختار طريقة الدفع، وهذه تكون إما إلكترونية بواسطة بطاقة الائتمان الخاصة بالدفع الإلكتروني فيدرج الشاري ثمن البضاعة في محفظة البائع الإلكترونية الخاصة بالموقع المعني، أو الدفع المباشر إذا كان تسليم البضائع بواسطة الشحن السريع (هناك عدد من الشركات المتخصصة بذلك وتتمتع بسمعة عالمية) وتسليم البضاعة بعد استيفاء ثمنها.

وإذا كانت فورة تكنولوجيا الإنترنت قرَّبت المسافات بين الأشخاص وسهَّلت التعامل فيما بينهم في كل الأوقات والأماكن والميادين، فمما لاشك فيه أن البيع من خلال هذه التقنية له فوائد جمة تتخطى ما سبق ذكره في سياق هذا الموضوع، ولعل أبرزها:

- إمكان الوصول إلى أي شخص في أي مكان في العالم بمجرد كبسة زر والدخول معه في مشروعات أعمال من دون تأشيرة دخول وثمن بطاقة سفر ومعاملات إدارية روتينية، باستثناء تلك التي تضمن سلامة الصفقة التجارية وسلامة توصيل السلعة وأمان الدفع.
- عدم وجود حواجز لغة رغم تعدد جنسيات الزبائن، وذلك بفضل برامج ترجمة يمكن إدخالها إلى موقع البائع.
- إمكان العمل من البيت أو من السيارة أو من أي بلد في العالم بمجرد وجود جهاز حاسوب واشتراك في خدمة الإنترنت، وتخطي عقبة المكتب الثابت.
- توسيع قاعدة الزبائن بين الملايين الذين يشترون عبر الإنترنت، ولا يعني ذلك إمكان زيادة البيع فقط بل أيضاً تخفيف كلفة الإدارة أيضاً من خلال تخفيف نفقات إعداد قائمة المنتجات وتخفيف كلفة البريد المرسل للزبائن إذ يمكن استعمال بريد إلكتروني جماعي.
- توفير نفقات إنشاء متجر حقيقي، من بنى تحتية وموظفين، والتحرر من دوام صارم للعمل، والاستعاضة عن ذلك بمتجر إلكتروني مع دوام حر وموقع مفتوح للزوار 24 ساعة في اليوم كل أيام الأسبوع.

مجال ملائم للمرأة

فوق هذا، قد يوفِّر الإنترنت ميزة خاصة تناسب معظم البيئات العربية المحافظة فيما يتعلق بعمل المرأة. فالعمل من المنزل وعدم التقيد بدوام ربما يشكِّل فرصة حقيقية عند كثير من النساء لبناء كيان اقتصادي وتحسين أوضاعهن المعيشية بعيداً من الضغوط الاجتماعية، مع الاحتفاظ بمتسع من الوقت للاهتمام بعائلاتهن. ومما لا شك فيه أخيراً أن البيع عبر الإنترنت يؤمِّن فرص عمل ملائمة جداً لفئة كبيرة من ذوي الحاجات الخاصة، فيغنيهم مثلاً عن الجهد الجسدي ويوفِّر عليهم مشقة التنقل.

ونظراً إلى كل التسهيلات التي تقدمها تكنولوجيا الإنترنت، ليس مستغرباً أن تنشأ في كل مكان في العالم وصلت إليه هذه التكنولوجيا، ظاهرة البيع الإلكتروني من المنزل كعمل رديف أو أساسي وأحياناً هواية تتحول مع الوقت إلى التزام مهني. وليس غريباً أيضاً أن تتكون في شهور قليلة مؤسسات واعدة أو أن تنشأ فئة جديدة من أصحاب الملايين. الأمثلة على ذلك كثيرة في العالم ولا مجال لحصرها، إلا أن بعض النماذج قد يشجِّع المترددين في خوض غمار هذه التجربة لا سيما من يحملون أفكاراً جديدة منهم وكل ما يحتاجون إليه بعض التشجيع، والتفكير بجد في موضوع مماثل قبل إطلاقه إلى حيز التنفيذ.

من موظف في مطعم إلى صاحب سلسلة مطاعم

فقد عرضت إحدى المجلات الأمريكية تجارب أشخاص في هذا السياق. يقول أحدهم إنه كان مجرد موظف صغير مرهق في مطعم، والآن بات يملك سلسلة مطاعم في أكثر



مــن ولايــة أمريكيــة. أمريكــي آخــر يقــول إن أعمالــه كانــت متدهــورة جداً في متجر ابتاعه قبـل أشهر، ويقول إنه كان ينتظر أعجوبة لتغيير الوضع، إلى أن قرر إدراج متجره على الإنترنـت فتغيَّــر الوضع في بضعــة أشهر. وطوَّرت أم وابنتهــا مخبزاً لهما من خــلال الإنترنت وباتت مبيعاتهمــا تتخطــى مليــون دولار فــي السنة، وهما فــي طور الإعــداد لخطة خمسيــة للتوسع. ومــن الشهادات الأخـرى نذكر سيدة تعاني مشكلات عائلية وكادت أن تفقد منزلهــا بسبب الفقر إلى أن اهتدت إلــى صناعة الدبابيس بعدمــا قــرأت في مجلــة عن أشخاص بــدأوا أعمالهم من خــلال الإنترنت بألــف دولار. وكان ذلك حافــزاً لها لتطلق موقعــاً على الشبكــة لبيع الدبابيــس، وهــا هــي اليوم تطلق مجموعة مجوهرات باسمهــا. وسيدة أخرى تحب الرياضة أطلقــت موقعاً لتعليم استعمال «هولا هوب» تمزج بين تعليم «الهولاهوب» والرقص. ثم بدأت شهرتها واهتمت بها وسائل الإعــلام، واستضيف فريقها في أحــد البرامج التلفزيونية لتقديم عرض على الهواء مباشرة.

ومن الــدول العربية أيضاً أمثلة عن أشخاص صمموا مواقع خاصة لبيع سلع منوعة. فهناك من باع إنتاجه من الصابون المشغــول بطريقة حرفيــة، ومن باع علاقــات ثياب خاصة بالمصابــغ، وثمــة مــن بــاع صحونــاً خاصة بالبيض، وما شابه.

هذه التجارب نموذج لواقع الحال، إلا أنه يتعذر على الباحث في هذا السياق إيجاد المعلومــات الكافية لأن التجارة عبر الشبكة على نطاق الأفراد ما زالت خجولة جداً، كما أسلفنا، رغم أنها متنفس حقيقي لمئات ألوف الشباب العاطلين من العمل مــن ذوي الكفاية العملية والمهنيــة لإيجاد فرصتهم المطلوبــة إما مــن خلال البحث عــن عمل عبــر الشبكة أو عبــر الشروع في نشــاط خاص كما بينت التجــارب المشار إليها. وفي هذا السياق يمكن الاستعانة ببحث نشرته إحدى الصحــف السعودية منذ مدة وجيزة تشير فيه إلى أن 66.3 فــي المئة من الفتيات السعوديــات المؤهلات للعمل ما زلن عاطــلات من العمل، وقد يكــون الإنترنت فرصتهن وفرصة من هن في وضع مشابه في الدول العربية.

كثيرون يعولون علــى إدراك المسؤولين في الدول العربية أهميــة الإنترنــت فــي مختلــف ميادـين الحيــاة العامة، وإدراكهــم ضــرورة مواكبــة التطور العالمــي في مجالات العلم والتكنولوجيا للاستفادة من منافعه، لتغيير الوضع القائــم. وبالفعل، بدأ العمل الرسمي بجد من أجل تطوير البنــى التحتيــة الضرورية لتنميــة هذا القطــاع، ولزيادة الفرص أمام أي شخص لديه النية في الدخول إلى رحاب هــذا العالم اللامتناهــي وأن يفتح أمامه المجــال واسعاً لكســب المعرفــة والمــال، وكل رأس ماله جهــاز حاسوب واشتراك فــي شبكة الإنترنت، ومن هنــا البداية مع القليل من المال.

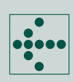


ما الذي سيحل بالعالم الذي نعرفه اليوم فيما لو خلا فجأة من البشر؟

العالم من بعدنا!

سؤال افتراضي قد يقود الذهن إلى ما يشبه واحدة من رحلات الخيال العلمي. ولكن السؤال نفسه يكشف في طيَّات جوابه حقيقة حضارة اليوم، التي باتت قائمة على «الصيانة»، ويظهر هشاشة «المنجزات العظيمة» التي يتشدَّق بها كأدوات سيطرته على الطبيعة من حوله، ودلالات هذه السيطرة. هذا ما يكشفه لنا أشرف إحسان فقيه*، وهو يرسم الصورة المتخيلة، ولكن على أسس علمية، لما ستؤول إليه الحياة وكل منجزات الإنسان، بدءاً من الساعات الأولى التي تعقب اختفاءه عن وجه الأرض، وحتى اختفاء كل الآثار الظاهرة التي تدل على أنه عاش ذات يوم على سطح هذا الكوكب.

* أكاديمي وقاص خيال علمي سعودي



«ماذا بعد أن يختفي كل البشر؟». هذا السؤال الرهيب في جوهره وتفاصيله قائم في الأساس على قاعدة كَونيَّة بسيطة: كل المخلوقات مآلها الفَناء.

لكن فلنأخذ هذه القاعدة البديهية ولنلوِ أطرافها قليلاً. لنتخيل أن البشر بالذات قد اختفوا من هذه الأرض. لنتخيل عالمنا اليوم وقد خلا تماماً من أي ابن آدم. لا يهم إن كان ذلك قد حصل في طرفة عين أو خلال فترة زمنية ما. المهم أننا سنقف عند اللحظة التي لم يعد فيها إنسان واحد على قيد الحياة. والسؤال الذي سنطرحه ليس عن كيف اختفى البشر.. لكنه عن المصير الذي ستواجهه الحضارة التي خلَّفوها وراءهم. عن مظاهر المدنية بأسرها: الطرق والسدود وناطحات السحاب، المساكن والمستشفيات والمصانع، مصادر الطاقة ووسائل الاتصال وحتى الأثاث المنزلي والحيوانات الأليفة، ناهيك بالتراث الفكري بصيغه التقليدية والإلكترونية. كيف سيمر العام الأول بلا بشر على هذه «المخلَّفات» كلها؟ وإذا كُتِب للحياة -بصورها الأخرى- أن تستمر ألف عام بعد فَناء الناس، فكيف سيكون شكل العالم.. الذي شكَّلَته حضارتُنا.. من بعدنا؟

العالم من دوننا ميت.. حقاً؟!

لوهلة، يبدو إرغام العقل على تصور هذا المشهد صعباً وقاسياً. أن نتخيل مدناً بأكملها، نيويورك أو لندن، القاهرة أو جدة، خاوية على عروشها. بلا ضوضاء ولا زحام ولا ملايين الوجوه والأصوات والروائح البشرية التي تمتزج بها لترسم ملامح الحياة الإنسانية. أن نتخيل ساحة «تايم سكوير» في نيويورك أو ميدان «التحرير» في القاهرة فارغين وصامتين، وشوارع شانغهاي ودبي بلا أية حركة سيارات عبرها.

النجاح في استحضار هذه الصورة الخيالية سيقودنا إلى قناعة أوليَّة واحدة. تخيُّل أي من هذه الحواضر بلا بشر يدبون على أرضها.. تصورها من دون أصوات تخترق سكونها إلا حفيف الشجر، هديل الحمام بالنهار ونباح الكلاب الضالة بالليل سيدفعنا دفعاً لإعلان هذه الأماكن «مُدناً ميتة». سنعدها كذلك بدون أن نلقي بالاً لصورتي «الحمام» و«الكلاب» السالفتين!

الحقيقة أن النقطة الأولى التي يجدر بنا أن نعيها ونتأقلم معها وقد ارتضينا الخوض في هذه اللعبة الخيالية، وهي النتيجة التي سنخرج بها من هذا الموضوع بأسره، هي مدى هشاشة وهامشية وجودنا البشري. فقد اعتدنا نحن البشر أن نعد أنفسنا محوراً للوجود في مقابل باقي الكائنات التي تشاركنا الحياة بهذه الأرض. إذ إننا وعبر حضارتنا الصناعية التي أوصلتنا إلى قمة المدنية، أسأنا تأويل الكيفية التي (سُخِّرت) لنا بها هذه الأرض بمواردها وموجوداتها. حَولنا علاقة الشراكة بيننا وبين هذه العناصر إلى علاقة استنزاف واستهلاك من طرف واحد بصفتنا «كائناً مسيطراً». والحقيقة المدهشة التي سيأخذنا إليها تصور هذا العالم من بعدنا تتعلَّق بزيف هذه السيطرة، وبعظمة الخلق واتساع دائرة الحياة التي ستتجاوز وجودنا لتنتعش بل وتتعافى من الأدواء التي صنعناها نحن، مبتلعة عبر السنين أي أثر لحضارتنا التي نراها فائقة وعظيمة. العالم من بعدنا سترثه كل أشكال الحياة الأخرى الحيوانية والنباتية. ومخلفات حضارتنا سترتع وتمرح فيها الكائنات المجهرية قبل الكبيرة، هي وكل عوامل الطبيعة الأخرى.

الإنسان خلال تاريخه على هذه الأرض قد أوجد، دون سائر المخلوقات، علامة فارقة بين ماهو طبيعي وماهو صناعي. الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي تجاوز مرحلة التكيّف مع الظروف الطبيعية إلى التمرد عليها وتحديها. والإنسان كان الكائن الذي لوى ذراع البيئة وعناصرها وطغى بحضارته على توازنها فأخلَّ به.

ما سيحصل، في حال اختفاء الإنسان، هو عودة إلى الحالة الأولى.. قبل ظهوره. الغابات والمحيطات والصحارى ستدير ذاتها بذاتها كما خُلقت لتفعل منذ ملايين السنين. وفي اليوم الذي يختفي فيه البشري الأخير، فإن الحياة الفطرية ستتولى الزمام.. وستبدأ في تنظيف المشهد!

اليوم الأول بعد اختفاء البشر

ستنكشف متانة الحضارة البشرية المزيفة خلال الساعات الأولى بعد غياب الإنسان عن الساحة. فحضارتنا بكل تعقيدها وعظمتها الظاهرة هي في الواقع حضارة صناعية.. استمرارها قائم على الصيانة المتواصلة. وبانتفاء هذه الصيانة والحماية من العوامل الطبيعية، فإن معالم وجودنا ستقع في يد العدم. وستكون مجرد مسألة وقت لتنهار الواحدة تلو الأخرى.

لنفهم الصورة أكثر فإننا سننتقي إحدى المدن الكبرى. لتكن نيويورك أو القاهرة. مظاهر المدنية الأبرز في أي من هذه الحواضر هي شبكات الربط الكهربائي والاتصال والطرق. هناك أيضاً البنى التحتية الخاصة بالمياه والصرف الصحي، وأنفاق القطارات تحت الأرض. ثم المنظومة العمرانية التي تقوم فوقها: ملايين البيوت والمتاجر والمصانع والمستشفيات، ومحطات التكرير والتوليد. وملايين الأطنان من المواد الأولية والمصنعة التي تدخل في تركيب أضعافها من الآليات والمستحضرات. كل هذه وغيرها تعتمد كلياً على المُشغِّل الآدمي، وبغيابه ستتوقف عن العمل. إنما ليس فوراً.



خلال الساعات الأولى بعد غياب البشر لن يتغير المشهد العام تغيراً جذرياً. المحطات ستستمر في تغذية المدن بالكهرباء. المصابيح التي تُركت مضاءة ستبقى كذلك ومثلها إشارات المرور ولوحات الإعلانات وشاشات التلفاز التي لن تنقل سوى مشهد انقطاع الإرسال. سيبدو الكوكب كما لو أنه منزل هائل هجره سكانه بغتة.

للسخرية، فإن الوحيدين الذين سيفتقدوننا خلال ساعات غيابنا الأولى هم الحيوانات الأليفة والداجنة التي روضها الإنسان عبر ألوف السنين لتصبح معتمدة عليه في مأواها وغذائها. ومعها أيضاً ستستأخِرُنا الحيوانات المتوحشة المأسورة في الحدائق. هذه الكائنات كلها سيعضها الجوع وستحاول الخروج من البيوت والحظائر بحثاً عن الطعام.

مع نهاية اليوم الأول ستبدأ آثار غياب الإنسان في الظهور أكثر. المحطات والمصانع الذاتية التشغيل ستوقف نفسها من العمل مع تراكم إنذارات زيادة الحِمل وعدم وجود مراقبين يديرون المفاتيح اللازمة. مكائن توليد الكهرباء وتحلية المياه ستتوقف عن الدوران بعد نفاد وقودها الكربوني. حتى مفاعلات الطاقة النووية ستغلق ذاتها آلياً بعد 24 ساعة من غياب الإشراف. وهكذا فإذا كانت الليلة الأولى ستمر ومعظم الأضواء الصناعية تلفظ أنفاسها، فإن الليلة الثانية ستكون مثالاً للظلام الدامس عبر الكوكب بأسره. ويجادل البعض بأن آخر بقعة ستتلألأ بالضوء الصناعي على سطح الكوكب هي مدينة لاس فيغاس بولاية نيفادا الأمريكية التي تغذيها المولدات الهيدروليكية لسد «هوفر» العظيم والمصممة لتعمل من دون تدخل بشري أسابيع وربما أشهراً!

لن يمر اليومان الأولان من دون حوادث طبعاً فهناك آبار ومحطات تكرير وقود وغاز تدور بلا مراقبة قبل أن تنقطع عنها الطاقة. وبوسعنا أن نتخيل إذاً بضعة حرائق هائلة عبر مدن العالم خلال هذه المدة. أما تحت الأرض فإن كارثة أخرى ستتكون سريعاً. فكل المدن الكبرى حول العالم تسبح في الواقع فوق بحيرات هائلة من المياه الجوفية التي تغذيها البحار والأمطار وبرك الصرف الصحي كذلك. هذه المياه تهدد أنفاق المترو والقطارات تحت الأرض. وما لا يعرفه الكثيرون هو أن هناك جيوشاً من الفنيين والأجهزة تتعامل مع هذه الظاهرة على مدار الساعة تجنباً لغرق شبكات المواصلات تحت الأرض. فمدينة نيويورك مثلاً تعتمد على 1700 مضخة لتخليص الطبقة الأرضية أسفل شوارعها من 130 مليون جالون مياه جوفية كل يوم. وفي غضون 36 ساعة من غياب البشر وتوقف الضخ فإن كل شبكات النقل تحت شوارع المدن الكبرى في العالم ستكون قد انغمرت تماماً في بحر من المياه الآسنة.

يمكن القول إن اليومين الأولين من غياب البشر سيكونان حافلين بالقذارة. فمع انقطاع الكهرباء فإن مخزونات اللحوم والثمار في ثلاجات البيوت والمتاجر وفي المستودعات ستتعفن كلها. كما وأن نسبة كبيرة من الحيوانات الأليفة ستكون قد هلكت جوعاً لتبقى جثثها حبيسة المنازل والأقفاص. الحيوانات الكبيرة والمواشي ستهيم على وجوهها -يوجد في العالم حوالي نصف مليار كلب مستأنس، و1.3 مليار رأس بقر- أما ملايين الجرذان والصراصير وسواها من الكائنات المعتالة على القمامة البشرية فستستفقدنا هي الأخرى وتترك مخابئها لتستكشف هذا الوضع الجديد.

كيف ستنهار الحضارة؟

يقول الخبراء إن حضارتنا الصناعية ستبدأ في التضعضع فعلاً مع أول شهر مارس/آذار يمر عليها من دوننا. حين يكون الشتاء بقسوته قد فرغ من تسديد ضرباته للمباني والهياكل المعمارية، فاسحاً المجال للمملكة النباتية لتكتسح كل ما في طريقها.



خـلال سنة واحـدة من اختفـاء البشر، ستكـون النبّتَـات البرية والحشائش قد أطلت من كل شق وكل فجوة تسقط عليها الشمس عبـر مدننا جميعها.. ومن ذلك شـروخ الأسفلت وأسطح المباني الأسمنـت والخشـب وأنابيب المياه الجافـة. وستكون الفئران قد أجهـزت علـى كل فضلة غذائية وصلـت إليها وواصلـت الاقتيات على المكونات العضوية لمواد البناء والأثاث. أما الوحوش البرية التي عاشت يوماً على تخوم المدن فستكون قد استوطنت منازلنا ومكاتبنـا منذ ستة أشهـر كاملة. بعدما تيقنت مـن غياب الناس وجذبتهـا الوفـرة الغذائية من قطعـان المواشـي الهائمة. مدننا الصحراويـة ستكـون أفضل حظاً من هـذه الناحيـة. فباستثناء أشعـة الشمـس التي تصليها دومـاً، فإن لا شيء سيغـزو المباني المهجـورة إلا أمواج الرمـال والغبار الذي سيغطـي كل سنتيمتر مربع من غرفها. وفي غياب وسائل التبريد، فإن المنازل المغلقة ذات الجدران العازلة ستتحول إلى أفران صغيرة تميع فيها هياكل المنتجات البلاستيكية والورقية. ومن نافلة القول إن هذه المنازل ستغدو هي الأخرى مأوي للكائنات الصحراوية.

خلال هذه السنة الأولى سوف تستعر حرائق الغابات من دون أن يطفئهـا أحد. ولا يستبعد أن تصل هـذه إلى مراكز بعض المدن المهمـة مثل شيكاغـو ولوس أنجليسـ فتسوي عمارهـا الخشبي بالأرض. هذه الحرائق إذا ما قدر لها أن تطال مصافي النفط أو مخزونات الغاز الطبيعي في الأنابيب والمواد الكيماوية المكدسة بالمصانع فإنها ستستعر أكثر وستمحو المزيد من المعالم. لكن هذه لن تكون في مجملها أكثر من خدوش في وجه الحضارة.

التغييـر الأشد تأثيـراً ستحدثه ببطء وتـؤدة عوامل من التغير المتطـرف فـي الطقسـ، الرطوبـة والصـدأ، وميـاه الأمطار المتجمعـة داخل الشقـوق والمتحولة إلى ثلوج شتـاءً، الزحف الصحراوي ورواسب الملح.

هذه العوامل التي نتعايش معها كل يوم ونقاومها على مدار الساعة هـي أكبر هموم مهندسـي الإنشاء وفنيي الصيانـة في كل مكان. الصدأ هو العدو الحقيقي لكل منتج فولاذي.. من قضبان الخرسانة التـي تدعّم المـلاط الإسمنتي وحتى جسر «البوابـة الذهبية» في سـان فرانسيسكـو. الأملاح التـي تتراكم على الهيـاكل الحجرية تعمل فـي تفتتيها ببطء. هذه العوامل كلهـا ستمارس نشاطها من دون جيوش عمال الصيانة الذين كانوا يزيلون آثارها.

إلا أن القـوة الطبيعيـة الأشد تأثيـراً إطلاقـاً سيمثلها الغطاء النباتـي الذي عمل الإنسان ألوف السنين في إزالته كي يؤسس مدنـه فوقه.. فيعود بعد غيابه ويسترجـع مكانته وكأن شيئاً لم يكن. بدون أية بستنة أو عمليات جزّ، ستأخذ الأشجار في النمو خـلال بضع سنوات عبر أسفلت الشوارع في الساحات ومواقف السيـارات. أرضيـات الملاعـب ستتحول إلى غابـات حقيقية تحجـب أغصانها الشمس. وأما النباتات المتسلقة والحشائش فستفترشـ دواخـل أي مبنـى يمكننـا تخيلـه: المستشفيـات والمصانع والأبراج السكنية أيضاً.

بعـد عشرين عاماً ستأخذ الهيـاكل الخرسانية في المباني في التآكل بعدما تمددت أجوافها بسبب تسلل الرطوبة إلى دعامتها الخرسانيـة، وستستعمر الحيوانات والطيـور فجواتها. وخلال 25 عامـاً من اختفاء البشر وتعطـل السدود وأنظمة التصريف الصناعية، فـإن أجزاءً أساسية من أمستـردام ولندن ستكون قد انغمـرت تحت الماء. ستكون المدن قـد تحولت إلى غابات حقيقية تمرح فيها الوحوش ولا سيما تلك التي كانت مهددة يوماً بالانقراض والتي زال مهددها الرئيسي عن الوجود، وستختفي سـلالات الحيونـات الأليفة تماماً. وبعد 40 سنـة من اختفائنا فـإن هياكل المباني الخشبية (90% من بيوت أمريكا) ستكون قـد انهـارت تماماً وسويـت بالأرضـ بفضل الحشـرات الآكلة كالنمل الأبيضـ، هذا إذا لم تكن الحرائق والنباتات المتسلقة قد أجهزت على نسبة معتبرة منها.









القرن الأول بعد الغياب

ستكون الفترة الأولى الممتدة ما بين قرن وقرن ونصف من عمر العالم من دوننا حاسمة بالنسبة لكل النفايات الحديدية التي تركناها وراءنا. وستشمل هذه 700 مليون سيارة المهملة في الشوارع، وملايين هياكل السفن والطائرات، إضافة إلى الجسور المعلقة والأبراج الفولاذية. بدون طلاء ولا استبدال أجزاء تالفة فإن قرناً كاملاً من الصدأ سيفتت التركيب الجزيئي للفولاذ ويحوله لمسحوق. هنا ستبدأ مدننا في الانهيار بالمعنى الحرفي للكلمة. الجسور العظمى حول العالم ستتهتك حبالها الفولاذية لتسقط في المياه التي امتدت فوقها. المركبات ستتآكل بما عليها من نباتات متسلقة وسيستحيل التعرف على أي هيكل معدني لسيارة بعد 150 سنة. أما الأعمدة الفولاذية التي ترفع أسقف الأنفاق تحت الأرض وترفع الشوارع المعبدة فوقها كذلك، فهذه بعدما غمرتها المياه الجوفية في الساعات الأولى من القصة، أخذت في التفكك والانهيار أخيراً ساحبة معها أرضيات الشوارع والأرصفة فوقها. لتنكشف الأدوار السفلية للمدن وتتحول مجاريها الداخلية إلى أنهار تجري على السطح الجديد.

خلال هذه الفترة أيضاً ستكون مخزونات النفط المكدسة في ملايين البراميل وداخل مستودعات الاحتياط، وكانت عصب حياتنا العصرية يوماً، قد اختفت بعد أن تكاثرت وتغذت عليها طيلة قرن سلالات من البكتريا المجهرية!

مصير الثروة النفطية سيتكرر أيضاً مع ثروة البشر الفكرية المدونة على الورق والقماش. هذه الكنوز محفوظة اليوم في المتاحف والمكتبات تحت ظروف حرارة ورطوبة دقيقة. خلال 100 عام من التقلب الحراري داخل مخازنها فإن أسعد هذه الكنوز حظاً -تلك التي لم تقع عليها أشعة الشمس ولم تأكلها الحيوانات باكراً- ستكون قد اهترأت تماماً وتحولت إلى غبار. الوثائق الإلكترونية مصممة لتعيش أكثر من ذلك في الظروف الاعتيادية. هذا إذا

ستة مليارات إلا واحداً

قضيتا «النهاية» و«اليوم الأخير» حاضرتان وراسختان في الأدبيات البشرية حول العالم بأسره. ولا يكاد تراث شعبي يخلو من روايته الخاصة لآخر أيام البشر على هذه الأرض. ولكن الأدباء في رواياتهم الخاصة بالنهاية لا يفترضون إمحاءً كاملاً للسلالة البشرية، إنهم غالباً ما يضيفون ذروة درامية بترك إنسان وحيد على قيد الحياة. شاهد أخير يقوم أيضاً مقام الراوي ومقام عين القارئ ولسانه في هذا العالم الخالي من البشر.. إلا واحداً.

أول الأعمال الشهيرة في هذا الصدد كانت رواية ماري شيلي التي ظهرت عام 1824م وعنوانها «الرجل الأخير» (The Last Man). شيلي، التي اشتهرت قبل ذلك بروايتها «د. فرانكنشتاين»، قفزت في هذه القصة بخيالها إلى بدايات القرن الحادي والعشرين. حيث يُزهق طاعون مجهول كل أرواح البشر إلا نبيلاً إنجليزياً واحداً يتمتع بحصانة خفية تجعله الإنسان الحي الوحيد في العالم.

الموال نفسه كررته أعمال أدبية وفنية عبر السنين لعل آخرها الفلم الهوليوودي «أنا أسطورة» (I Am Legend) مع تنويعات مختلفة هنا وهناك. وعبر الأعمال الشبيهة كلها: «حرب العوالم» لهربرت ج. ويلز، ورواية «الطريق» لكورماك مكارثي، وسلسلة (Y: The Last Man) التي تفترض وباء يقتل كل الرجال ويُبقي على النساء؛ فإن أسباب النهاية البشرية هي صناعة محلية، أو قادمة من كوكب آخر. لكنها تظل نهايات صناعية وقعت نتيجة أفعال أقدمت عليها كائنات عاقلة ما. المتأمل لكل هذه الخيالات الكئيبة لا يسعه إلا أن يتنبه لمقدار الخوف الذي يمزق ضمائر أصحابها. لتفسيرهم للحضارة وللمدنية كوحش لا يلبث أن ينفلت من عقاله ليلتهم أصحابه. أو على الأقل كتمرد على الحالة الأصلية أو مغامرة لا تلبث أن تنتهي ليعود كل شيء «إلى ما كان».. هذه الحالة الأصلية عند هؤلاء المبدعين لا تتضمن مكاناً للبشر. إنها تستلزم زوالهم.. إلا واحداً.. البطل الذي سيحكي.

لو صح هذا الخيال، فإن هذا الناجي البشري الوحيد سيكون أتعس إنسان عاش على هذه الأرض. إنه أسوأ حالاً من روبنسون كروزو الذي قرأنا قصته وحيداً على جزيرة مهجورة. كان كروزو يحيا على أمل أن يرجع إلى الحضارة يوماً. أما هذا الناجي الأخير فيعرف تماماً ألا بشري سواه. إنه يعرف أن عليه أن يحيا وحده ضد الطبيعة الصرفة وضد المدن المنهارة وضد الحياة الحيوانية والنباتية التي تسنمت الآن سدة السيطرة. عليه أن يفعل ذلك كله من دون مبرر واضح، ولا هدف معين. حتى عذر «حفظ النسل» لن يكون قائماً في حالته.

لو حصل وفنيَ الستة مليارات بشري إلا واحداً فإن هذا البشري الأخير قد لا يعمر طويلاً. قد لا يخوض أياً من المغامرات التي قرأنا عنها وشاهدناها في الأفلام الخيالية. إنه قد لا يتأخر في اللحاق ببقية البشر كثيراً. هو بانتمائه الفادح للمدنية الصناعية التي سلبته لياقته للانتماء الأصلي للطبيعة، إن لم يقتله الجوع أو تقض عليه الوحوش والجوائح سريعاً فإنه قد يسلب روحه بيده قبلاً. قد ينهار داخلياً وينهزم أمام محض فكرة وجوده المتفرد. ولتكونن هذه أقوى نهاية درامية لجنسنا البشري!



ضمنا ألا تكون قد تعرضت للبلل أو الاحتراق أو طمرتها الرمال والنباتات الطفيلية!

فترة انهيار الأبراج والمباني العظيمة التي ترمز اليوم لمدينتنا المهيبة ستبدأ بين 100 و300 سنة من تاريخ اختفاء البشر. المباني الفولاذية الصرفة -كبرج «إيفل» الباريسي- ستنهار أولاً بفعل قرون من الصدأ والتقلب المناخي. ثم ستليها ناطحات السحاب الخرافية التي تضعضعت أساساتها بفعل ارتفاع المياه الجوفية وتشققت بُناها بسبب المياه أيضاً إضافة للأشجار والحيوانات التي ستستعمر كل طابق منها. ناطحات دبي ونيويورك وشيكاغو ستنهار خلال 3 قرون من الإهمال في مشهد مهيب لن يشهده كائن عاقل واحد.

بعد 500 سنة ستأخذ المباني الإسمنتية الحديثة في السقوط هي الأخرى بعدما استنفدت أساساتها ودعاماتها مقاومتها. قد يكون من المدهش أن تنهار هذه المباني خلال هذه المدة الوجيزة في حين أن مباني أثرية أخرى لا تزال وربما ستستمر قائمة بعدها. لكن المدهش أكثر أن منتجات حضارتنا المعاصرة تحمل في داخلها أسباب فنائها. فالخلطة الإسمنتية مدعمة بالحديد، وهذا كما ذكرنا سيقع ضحية الصدأ وهو ما لا يحدث مع الملاط الذي استخدمه أجدادنا قبل آلاف السنين. كما وأن المادة الإسمنتية الحديثة تحوي مياهاً وجيوباً هوائية أكثر بكثير من نظيرتها المستخدمة قديماً. ويعني هذا أن مباني منازلنا ومكاتبنا ستنهار قبل الكولوسيوم في روما ومعابد الكرنك وآثار بعلبك بوقت طويل!

ماذا سيتغير؟ ماذا سيبقى؟

بعد 1000 سنة من انسحاب الجنس البشري من مسرح الحياة، لا شيء من مظاهر حضارتنا.. مدننا، مصانعنا، مزارعنا ومنشآتنا.. لا شيء من هذا ولا سواه سيكون ظاهراً للعيان. ستكون الأرض قد عادت إلى حالتها الطبيعية الأولى، تقريباً.



ستكون مظاهر الحضارة التي لم تنهر أو تغرق أو تحترق قد اختفت تحت غطاء كثيف من النباتات والرماد. وفي المناطق القاحلة فإن زحف الرمال وعواصف الصحراء سيتكفلان بطمس المشهد البشري تماماً. هذا إذا لم يلف الأرض عصر جليدي ثانٍ يمحو ما كان قبله.

حتى المباني الأثرية الحجرية التي اتفقنا أنها تفوق مبانينا متانة، حتى هذه -باستثناء أهرامات الجيزة وأجزاء من سور الصين ربما- ستختفي خلف الشجر وتحت التراب ما لم يكن ثمة من يدفعهما عنها. ستجري الأنهار مجدداً مكان الشوارع التي بنيت فوقها. وستتغير تضاريس السواحل وفقاً لسطوة الأمواج. أما التضاريس الصناعية التي أوجدانها بأيدينا كقناتي السويس وبنما، فهي ستلتئم وتختفي كأنها لم تكن.

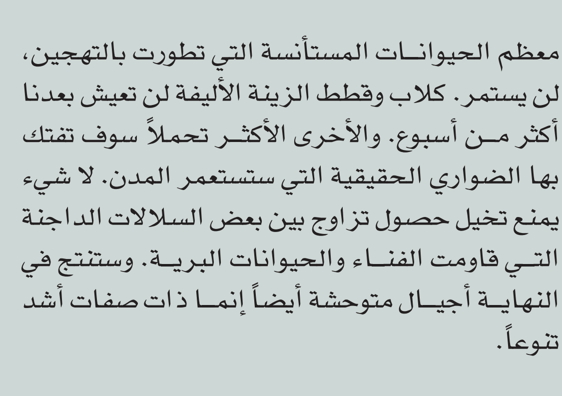
هذا التصور السوداوي ليس كله ضرباً من الخيال. بل هو مبني جزئياً على أمثلة صغيرة موجودة حولنا اليوم. هناك بقايا مدينة أنغكور الحجرية في قلب غابات كمبوديا وهي مهجورة منذ مئات السنين. هناك المنطقة منزوعة السلاح بين الكوريتين ولم يستعمرها بشر منذ 1957م. وهناك مدينة بريبيات الأوكرانية التي غدت مدينة أشباح منذ كارثة تشيرنوبل النووية عام 1986م. هذه المواقع كلها تتيح لنا فرصة تأمل كيف ستتعامل الطبيعة مع مخلفات مدنيتنا.

إذا أغرقنا في الخيال أكثر، وافترضنا زيارة كائنات فضائية عاقلة لكوكبنا بعد مرور عشرة قرون على اختفائنا، فإن هؤلاء الزوار لن يعثروا غالباً على أي دليل يشير إلى وجود حضارة عاقلة قبلهم بهذا المكان. كل ذكرياتنا سوف يطويها العدم. لكن هذه العبارة الأخيرة ليست دقيقة تماماً. هناك مخلفات من حضارتنا الصناعية ستظل موجودة في تركيبة الجو والماء طويلاً بعد أن نرحل وبعد أن تختفي كل منشآتنا الكبيرة. فالمبلمرات الصناعية الكربونية، مركّبات البلاستيك التي تدخل اليوم في صناعة كل شيء تقريباً، الأكياس والحاويات والإلكترونيات والدهانات ومستحضرات التجميل والنايلون وقوالب الستايروفوم. كل هذه «الملوثات» التي نشكو منها اليوم، هذه لن تفنى ببساطة. وستظل آثارها باقية في البيئة لآلاف السنين بعدنا. المطاط الصناعي لعجلات السيارات سيصمد هو الآخر. سينتظر من ينتشله من تحت الأرض يوماً كدليل إثبات.

حتى ثاني أكسيد الكربون الذي نلقي عليه بلائمة ظواهر الاحتباس الحراري، لن تُحل مشكلته مع كوكب الأرض بمجرد غيابنا. فالحسابات تشير إلى أننا لو توقفنا -تماماً- عن ضخ المزيد من هذا الغاز لطبقات الجو، فإن الكوكب سيحتاج إلى 100 ألف سنة كي تتوازن نسبة غاز الكربون في الأجواء والبحار وترجع إلى ما كانت قبل العصر الصناعي!

آخر ما سيتذكره الكون من آثار حضارتنا على الإطلاق موجات الإذاعة والتلفاز التي ستتردد -نظرياً- عبر الفضاء إلى الأبد. لكن هذه الموجات ستكون غير ذات قيمة حتى لو التقطتها حضارة متطورة أخرى. لأنها ستضعف وتفقد قدرتها على حمل أية رسالة مفيدة خلال مسافة لا تتجاوز سنة ضوئية واحدة.

لكن، هل يمر وجودنا على سطح هذا الكوكب هكذا من دون أي أثر إيجابي على كائناته؟ ألن تتأثر أي من المخلوقات الحية التي ستبقى بعدنا بالتجربة المشتركة التي خضناها معاً خلال بضعة عشرات ألوف من السنين؟



معظم الحيوانات المستأنسة التي تطورت بالتهجين، لن يستمر. كلاب وقطط الزينة الأليفة لن تعيش بعدنا أكثر من أسبوع. والأخرى الأكثر تحملاً سوف تفتك بها الضواري الحقيقية التي ستستعمر المدن. لا شيء يمنع تخيل حصول تزاوج بين بعض السلالات الداجنة التي قاومت الفناء والحيوانات البرية. وستنتج في النهاية أجيال متوحشة أيضاً إنما ذات صفات أشد تنوعاً.

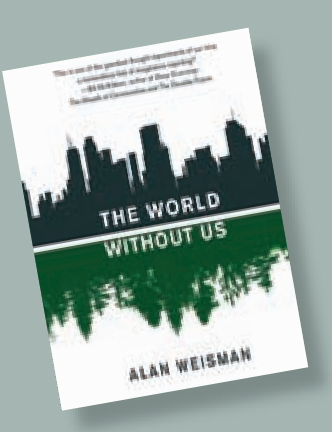
الكائنات المعتالة على البشر، كالفئران والصراصير وحتى النوارس التي انتعش تعدادها بفضل الغذاء والدفء الذي وفرته البيئة الصناعية، هذه ستتعرض لانتكاسة شنيعة عقب اختفائنا، ثم ستتطور لتغدو أكثر اعتماداً على أنفسها. هناك على كلٍ، سلالة حية ستختفي تماماً معنا: حشرة القمل التي تعتاش على الجسم البشري، وشقيقتها التي تعتاش على نسيج القماش. هذان النوعان سيفقدان باختفائنا موارد حياتهما الوحيدة!

أما حضارتنا الزراعية فلن تصمد أبداً أمام الزحف الطبيعي. نباتات المحاصيل التي طورناها ونشرناها عبر ألوف السنين ستموت مع انعدام الرعاية البشرية وأطنان السماد الكيماوي. وتلك التي ستتكيف مع الظروف البرية ستنتج بالتأكيد ثماراً مختلفة عن التي نعرفها. ومع أن الإنسان قد حوّل 12% من مساحة الأرض إلى مزارع وخصص 3% فقط لأجل مدنه، إلا أن المدن ستصمد أكثر من المزارع بكثير.

بقيت البحار التي تحتل ثلاثة أرباع مساحة الكوكب. هذه ستنتعش من جديد بعدما كاد الإنسان يفتك بثروتها السمكية. والتلوث سينقطع عنها باختفاء سيول الصرف الصحي ومخلفات السفن والمصانع وحوادث بقع الزيت.

باختصار، يبدو أن الكوكب الذي نتشدق دوماً بأنه مُسخَّر بما فيه لأجلنا، سيتعافى وينتعش بعدنا. هل يكون هذا الاختفاء عقاباً مستحقاً على سوء استخدامنا للأرض؟ هل سنفسح بغيابنا المجال لسلالة عاقلة أخرى كي تحل محلنا وتجرب حظها في إدارة موارد هذا الكوكب؟ الحقيقة الحسابية تقرر أننا لو كان بوسعنا أن نضغط تاريخ الأرض الممتد أربعة مليارات ونصف المليار عام في فلم مدته 24 ساعة، فإن الفترة التي سيستغرقها ظهور الجنس البشري في هذا الفلم لن تتجاوز لقطة مدتها 30 ثانية.

اقرأ



العالم من دوننا
The World Without Us

بدأت فكرة هذا الكتاب بمجرد مقالة، لكنها تطورت لتستولي على قلب وعقل الأكاديمي والكاتب الصحفي آلان وايزمان وتأخذه في رحلة عبر قارات العالم ليقف بنفسه على الدلائل النظرية والمحسوسة لقدرة الطبيعة على تجاوز السيطرة البشرية وعلى إدارة شؤونها بذاتها.

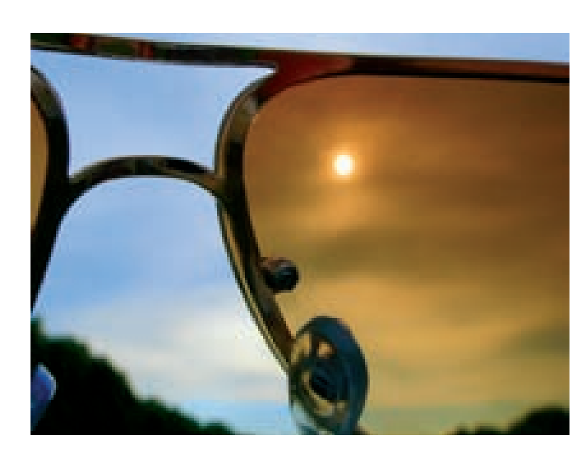
عبر 300 صفحة من القطع المتوسط، يأخذنا وايزمان في رحلتين متوازيتين. إنه يستحضر لنا المستقبل ويصور لنا الطريقة التي ستؤول إليها البيئة بعنصريها الطبيعي والصناعي إذا اختفينا كجنس حي. وهو كذلك، يفتح أعيننا أكثر على الحاضر. على الأثر السلبي الذي نخلفه وراءنا. وعلى الجرائر التي كنا سنندم في المستقبل على ارتكابها في حق الأرض والحياة الفطرية.

كتاب «العالم من دوننا» يكشف لنا كم نحن غير محوريين ولا أساسيين بالنسبة للكوكب. كم هي الأرض متجدِّدة وقادرة على لأم جراحها العميقة التي أحدثناها بها. وكم هي صابرة علينا وسخية معنا. وإذا كانت فكرة اختفاء الجنس البشري وانهيار حضارته من بعده في ظرف بضع مئات من السنين مخيفة ومذهلة. فإن الأكثر إثارة للدهشة هو إهمالنا لصيانة هذه الأرض التي ننتمي إليها أصلاً بأكثر مما ننتمي للشوارع الأسفلتية ومباني الحديد والزجاج التي لن تصمد طويلاً بدون صيانتنا وإشرافنا أمام محض الماء والشجر.

1 النظارات الشمسية تخدع العصب البصري

يحذِّر الأطباء من أن ارتداء النظارات الشمسية على الدوام، ينطوي على خطر شديد على صحة الجلد والبشرة، إذ إنه يمنع الجسم من استخدام آليته الطبيعية للحماية من أشعة الشمس الضارة، التي تسبب مشكلات صحية عديدة تبدأ بحروق الشمس، وتصل إلى حد الإصابة بسرطان الجلد.

حين يتعرض الجلد لأشعة الشمس الضارة، فإنه يلجأ إلى إنتاج كمية أكبر من مادة الميلانين. وهي مادة صبغية لديها القدرة على امتصاص الأشعة فوق البنفسجية التي تصلنا من الشمس، فتحول دون نفاذها إلى خلايا البشرة والتفاعل مع مكوناتها، وبالتالي إحداث الضرر بها. وتعتمد آلية إنتاج الميلانين على الغدة النخامية التي تفرز هرموناً محفزاً يؤثر في الخلايا صانعة الميلانين ويحفزها لإطلاق كميات كبيرة منه ملائمة لمقدار الأشعة الضارة التي يتعرض لها الجلد. وتنشط هذه الآلية حين تصل إشارات تفيد بتعرض الجسم لضوء الشمس وأشعتها إلى الغدة النخامية. وهذه الإشارات يرسلها العصب البصري، أكثر أجزاء الجسم حساسية للضوء.



حين نرتدي النظارات الشمسية، فإن العصب البصري لا يشعر بكمية الضوء الحقيقية التي يتعرض لها الجسم، فيبدو الأمر له آمناً. وبالتالي لا يرسل إشاراته التي تبدأ من طريقها آلية إنتاج الميلانين.

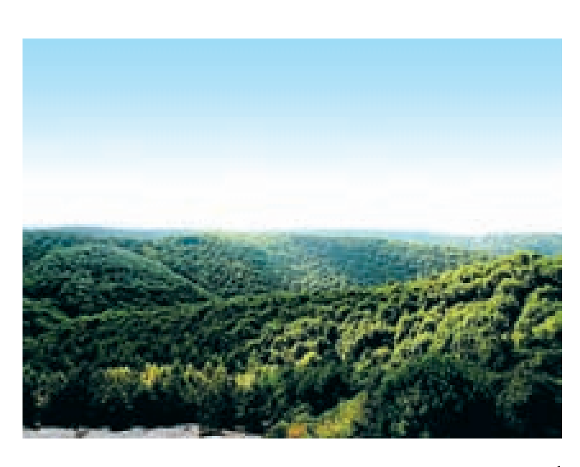
في مواجهة حرارة شمس الصيف، ينصح أطباء الجلد باستخدام نظارات شمسية غير معتمة، تحمي العين من حرارة الشمس وأشعتها الضارة، لكن تسمح لضوئها بالوصول إلى العصب البصري بنسبة تكفي لبدء إنتاج الميلانين وحماية الجلد من الأشعة المؤذية.

2 الغابات.. دروع ضد الكوارث

كثيراً ما نسمع نداءات علماء البيئة والقائمين على حمايتها، المتعلقة بالدور الذي يلعبه الغطاء النباتي في الحفاظ على توازن الحياة على سطح الأرض. ورغم هذا، ما زالت اليد البشرية تمتد بالعبث إلى الغابات، غير عابئة بالدمار الذي يمكن أن تحصده نتيجة لذلك.

وفي دراسة حديثة أكد العلماء أن أحد أسباب الدمار الكبير الذي أحدثه الإعصار الذي ضرب سواحل ميانمار في مطلع شهر مايو، هو الإبادة التي كانت قد حلَّت بمساحة تناهز مائتي ألف كيلومتر من الغابات على طول سواحل البلاد. فقد كانت هذه الغابات قادرة في حال وجودها على امتصاص نسبة كبيرة من قوى التدمير التي يحملها الإعصار، وتحجيم أضراره.

ولم تكن هذه المرة الأولى التي يصل فيها علماء البيئة لهذه النتيجة. ففي عام 2005م نشرت مجلة «العلم» الأمريكية دراسة تؤكد أن المناطق الساحلية التي يدعمها غطاء نباتي طبيعي، والتي ضربها إعصار تسونامي العام 2004م، تعرضت لدرجات



أقل من الدمار بالمقارنة بتلك المناطق التي لم تتوافر لها هذه الحماية الطبيعية، والتي سجلت معدلات أعلى في عدد الوفيات البشرية، وفي الأضرار المادية الأخرى.

وتشير تقارير الأمم المتحدة إلى أن مساحات شاسعة من الغابات في العالم قد تعرضت للإبادة منذ عام 1980م، كان نصفها في قارة آسيا وحدها. حيث أزيلت الأشجار لتقام مكانها القرى السياحية والمنتجعات التي تشتهر بها سواحل جنوب شرق القارة الآسيوية.

3 الطعام الحريف.. أين لذته؟

من وجهة نظر علمية، يبدو تفضيل البعض للطعام الحريف شيئاً بعيداً عن المنطق، مع كل ما يسببه من عدم ارتياح يصل أحياناً إلى حد الألم. فلماذا إذن يُقبل البعض على طعام يسبب ذلك؟

هناك عدة تفسيرات للأمر، تعتمد على ملاحظات علمية للتغيرات التي تحدث في الجسم نتيجة لتناول الأطعمة الحريفة. أحدها يقول إن سكان المناطق الحارة يفضلون تناول الأطعمة الحريفة لأن الحرارة التي تولدها تساعد الجسم على التعرق الذي يؤدي بدوره إلى خفض درجة حرارته. وهناك تفسير آخر يقول إن هذه الأطعمة تحفز المخ لإطلاق مواد تعرف باسم الإندورفينات، وهي مواد كيميائية تفتح مسارات الشعور بالراحة والسعادة ورؤية الحياة بطريقة إيجابية.

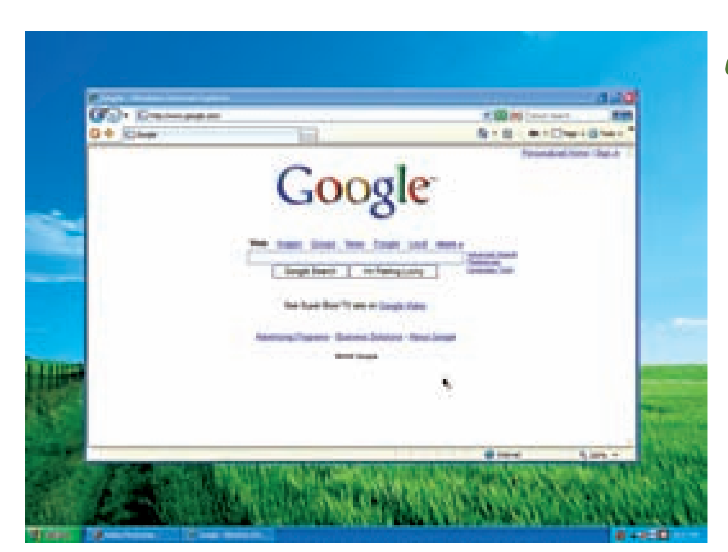
وآخر هذه التفسيرات هو ما يتبناه بول روزن أستاذ علم النفس بجامعة بنسلفانيا الأمريكية، الذي تخصصت أبحاثه في دراسة العلاقة بين الإنسان والطعام. يقول روزن إن تجربة تناول الطعام الحريف، تشبه تجربة مشاهدة أفلام الرعب، ففي الحالتين يتصرف الجسم وكأنه في مشكلة، ويعاني داخلياً مستويات التوتر العالية التي يعانيها حين يواجه خطراً حقيقياً، بينما يدرك العقل أنه في أمان تام. وهذه الإثارة التي تتضمنها التجربة، تجعل الطعام الحريف شيئاً محبباً.

4 نفاد الصبر مع الإنترنت

بعد مرور خمسة عشر عاماً على دخول الإنترنت حياتنا، هل ما زالت الطريقة التي نتعامل بها مع هذا العالم كما هي؟ هذا هو السؤال الذي طرحه التقرير السنوي لاستخدام الإنترنت، وقد أجمع الخبراء على إجابته بالنفي.

بالملاحظة الشخصية يدرك الكثيرون أن الطريقة التي كانوا يتعاملون بها مع الإنترنت تغيرت كثيراً، وهذا التغير يلخصه خبير الاتصالات الأمريكي جاكوب نيلسون بأننا أصبحنا «نافدي الصبر» مع الإنترنت. يقول نيلسون إن كل ما يريده المستخدم الآن هو أن يصل إلى موقع معين، لينجز مهمة معينة، ثم يغادره سريعاً ليؤدي مهمة أخرى. بينما لم يكن الأمر كذلك في الماضي، حين كنا نستخدم مصطلح «تصفح الإنترنت» لنصف استخدامنا لها. أما الآن فإن المصطلح الصحيح هو «الجوجلة» نسبة إلى جوجل محرك البحث الأكفأ والأشهر في العالم.

وينصح نيلسون مصممي المواقع بأن يدركوا هذا التغير جيداً، ويضعوه بقوة في حسابهم. فالمستخدم الآن لا يفضل أن تكون صفحات الإنترنت جذابة بصرياً ومليئة بالحركة والصور والألوان، بقدر ما يفضل كونها عملية وسهلة الاستخدام. ولم يعد يبحث في الإنترنت عن سحرها الذي صار مألوفاً له، وإنما يبحث عن مستويات أعلى من الكفاءة في أدائها لعملها.



قصة ابتكار

الـــدراجـــة الـهـوائـيـة

كان مشهـد راكـب الدرَّاجة الهوائية، في أول عهدهـا، يثير الاستغراب. فكنت ترى شخصـاً يمتطـي سرجاً موضوعاً على هيكل من الخشب، يقـوم على دواليب، فيما يدفع الراكب الدرَّاجة وقدماه على الأرض، كأنه يمشي، لكن وهو جالس على السرج. فكيف ظهرت الدرَّاجة ومتى؟

استجـاب البـارون كارل درايـس فـون ساوربـرون (1785 – 1851م) لرغبة والـده، فدرس علم الغابـات قبـل أن ينصرف إلى هوايته الحقيقية: الفيزيـاء والميكانيك. وبدءاً من سنة 1813م أخذ البارون الشاب يهتم بصنع مركبة تندفع بقوة الرجلين. وفي سنة 1814م عرض للجمهور طـرازه الأول، وهـو درَّاجة ذات أربـع عجلات، تندفع على سكة، بقوة عضـلات الرجلين اللتين تدوسـان علـى مُخل، يصعد ويهبـط. وقد اعتُمدت هـذه المركبة طويلاً فـي السكك الحديد، عربـةً لنقـل الميكانيكييـن المسرعيـن لإصلاح القطـارات. وحصل درايس على بـراءة اختراع مدتها سنوات عشر، وعُيِّن أستاذاً للميكانيك في بادن. ولما كانت طرق تلك الحقبة غير مناسبة للعربات ذات الأربع عجلات، اهتدى درايس إلى عربة تسير على دولابين فقط، لمرونتها على الطرق الوعرة. وفي سنة 1817م، عرض للجمهور «درايسيان» (نسبة إليه) وهـي مركبة خشـب بدولابين، تندفع بقـوة القدمين، ولها مقـوَد يوجهها. كان المشهد مضحكاً للناظرين، لكن الدرَّاج كان قادراً على الانتقال بسرعة 10 كيلومترات في الساعة، وتلك سرعة ممتازة، في ذلك العصر.

وحظيت المركبة الجديدة بإقبال شديد لدى البورجوازيين والمفكرين المتحرريـن وأصحاب النظرة التقدميـة آنذاك، واشترت نوادي الرياضة الكثيـر منها لمرتاديهـا. وانتشر في إنجلترا سباق بين الدرَّاجة والخيل. وصُنعـت المركبـة فيمـا بعد من حديـد. وشاعـت سنـة 1818م حتى مُنع استعمالها، إلا على الطرق. ونشأت مدارس لتعليم قيادة الدرَّاجة. وواصل درايس تحسين اختراعه، فأضاف إليه صندوقاً ومكبحاً (فرامل). كذلك أضـاف فـي مرحلة، شراعـاً للاستفادة من قـوة الريح في دفـع الدراجة. غيـر أن درايـس لـم يستفد كثيـراً من اختراعـه، ذلك أن جيمـس ستارلي الإنجليـزي وبيـار ميشـو الفرنسي صنعا دراجـة شبيهـة، ونشبت دعاوى قضائية بين الثلاثة.



ولم يدم عمر الدرَّاجة التي تُدفَع بالقدمين طويلاً، وتوقفت عن التطور، وأنفـق درايـس الكثير لإنتاجها على نطاق تجـاري، لكنه مات سنة 1851م مفلساً. ولم تنتشر الدرَّاجة التي نعرفها اليوم إلا عند ظهور الدواستين، اللتين اخترعهما الإسكوتلندي كيركبتريك ماكميلان (1813 – 1878م) الـذي صنع مـن النصف الثاني من القرن الميـلادي التاسع عشر، عصر ظهور الدرَّاجة الهوائية الحقيقي.

ومنـذ ذلـك الحين، راحـت الدرَّاجة تتطور باستمرار، مـع انتقاء المعادن التـي تُصنع منهـا، وتحسُّن مرونة حركتها وقوة تحملها. وهي اليـوم وسيلة النقل الشعبية الأولـى فـي عـدد كبير مـن دول العالـم، لا سيما في آسيـا، لرخص ثمنها عـن أثمان وسائل النقل الأخرى، ولعدم حاجتها إلى الوقود.

قصة مبتكر

وليام أوستن بيرت

مختــرع الآلــة الكاتبـة

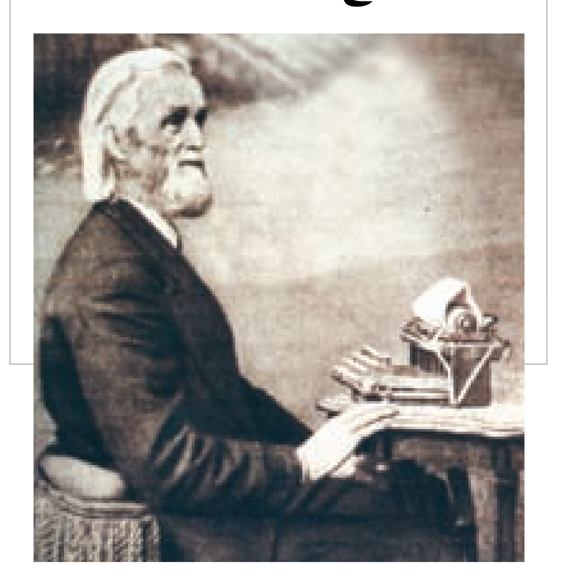
فـي بيئـة تحيط بها غابات متشيغان، بعيداً عن البـؤر الاقتصادية الأمريكية، اخترع مسَّـاح الأراضـي، الموظف الحكومـي اللامع وليام أوستن بـورت (William Austin Burt) أول آلة كاتبة، سنة 1829م، فأحدث ثورة في عالم الأعمال، لم تتوقف إلى يومنا هذا.

وكان مختـرعـون قبـل بيـرت حاولوا في عدد من البلدان، أن يستحدثـوا الكتابة الآلية بدلاً مـن اليدويـة. ففي سنـة 1714م، حصل المخترع الإنجليزي هنري ميـل على براءة اختراع، لكنـه لـم يُفلح في إقناع الناس بالحاجة إلى هذا الاختراع. ومضى قرن كامل قبل أن تظهر الفكـرة مـن جديد. ففي ألمانيا عمـل مخترع الدرَّاجة الألمانـي كارل درايس، في صنع آلة كاتبة، وفي سنة 1820م نجح في اختراع آلة تضم 16 حرفاً.

وفي الوقت نفسه كان بيرت في متشيغان يحاول جاهداً الوصول إلى الغاية نفسها. واختار اسم «تيبوغرافر» لآلته الجديدة. وفي 1829م، تمكن من تحسين الاختراع، وهو غير موقن كم سيكون اختراعه هذا مؤثراً في دنيا الأعمال.

كانت الآلة الكاتبة الأولى من خشب، وكان حجمها ضخماً. وكانت الحروف مثبتة على مزلاج، يحركه الكاتب، حتى يقابل الحرف المناسب مكانه على الـورق، فيدفعـه الكاتـب ليتـرك رسمـه بالحبر فـي سياق الكلمـة. واجتهد بيـرت فـي تصغير حجم آلتـه. ودرَّب نفسه، حتى صار يكتـب بالآلة بسرعة كتابتـه بيـده. واعتـرف صديقه جون ب. شلـدون، ناشر صحيفـة متشيغان غازيـت، بـأن الآلة تفتـح مجالاً مغريـاً لتطويـر العمل الصحافـي. وسجل بيرت عندئذ الاختراع باسمه.

لكـن بيـرت المهووس بالاختـراع، لم يكـن تاجراً جيـداً، فلم يبع مـن آلته شيئـاً. إلا أنـه كان يضـع اللبنـات لتطويرهـا. وبهـذا فتح البـاب لغيره من المخترعيـن الذيـن أكملـوا عملـه. فقد تمكـن الأمريكـي كريستوفر لاثام شولـز (1819 – 1890م) مـن دفـع الآلـة الكاتبـة شوطـاً بعيداً إلـى الأمام سنـة 1867م. فأضاف إليها مع أصدقائه كارلوس غليدن وجيمس دينزمور وصمويـل سول، الأسطوانة المطاطية التي يُلَف من حولها الورق، وتثبيت الفاصل بين الأسطر، والانزلاج من اليمين إلى اليسار عند انتهاء السطر. كذلك وضع شولز نظام ترتيب الحروف المعروف اليوم باسم: QWERTY، الذي نصادفه على معظم لوحات المفاتيح في حواسيب اليوم.



وفـي سنـة 1873م، بـاع شولز براءة الآلـة إلى صانع المدافع الأمريكي فيلو رمنجتـون، فبـدأ هذا بإنتاج الآلـة على نطاق تجاري، وباعهـا إلى المحامين والمكاتب التجارية والمصانع، وحتى المؤلفين. وكان مارك توين أول كاتب يسلِّم كتاباً إلى الناشر كتبه بالآلة الكاتبة، وهو كتاب «مغامرات توم سوير».

ومنذئـذ صعـدت الآله الكاتبة صعـوداً مدهشاً، حتى صارت اليوم، وورثهـا الكمبيوتر، حاجة لا غنى عنها في الأعمال، مهما كانت. وقد تحسنت على مدى السنين، فصارت تعمل بالكهرباء. ثم دخل النظام الرقمي في صنعها، واستوحيت في صنع الكمبيوتر، ابنها الشرعي.

اطلب العلم

طول القرن العشرين، لم تتعرض نظرية أينشتاين حول نسبية المكان والزمان إلى ما يمكن أن ينقضها فعلاً، خاصة فيما يتعلق بحدود السرعة القصوى التي يمكن لأي شيء أن يبلغها والتي يجب أن تبقى دون سرعة الضوء (300 ألف كلم/ثانية)، لأن الزمان يتوقف تماماً عند هذه السرعة. ولكن نسبية أينشتاين وإن أثبتت صحتها

الحدود الجديدة للسرعة

راشد سليمان*

في أكثر من فصل من فصول الفيزياء والمكتشفات المعاصرة، تتعرض اليوم إلى هزة عنيفة. وإذا كانت الهزة تقتصر عليها في الوقت الحاضر، فذلك لأن آخر ما توصل إليه الفيزيائيون في دراسة حدود السرعة لا يزال محصوراً في دوائرهم، ولم تخرج نتائج أبحاثهم بعد من المختبرات لتغيِّر واقع العلوم التطبيقية وتهز العالم بأسره.

فاستناداً إلى نظرية وجود أنفاق ما بين ذرات كل مادة (لا أحد يعرف طبيعتها ولا ممَّ تتألف)، تمكن العالم الألماني غونتر نيمتز في جامعة كولونيا، من تمرير موجات بالغة الصغر عبر هذه الأنفاق، بسرعة تجاوزت سرعة الضوء. ولتأكيد أن الموجات الملتقطة هي نفسها التي أرسلت، أعاد نيمتز تجربته من خلال تحويل إحدى سيمفونيات موتسارت إلى موجات كهرومغناطيسية بالغة الصغر وتمريرها عبر الأنفاق وإعادة جمعها عند الطرف الآخر.

وفيما يرى الفريق الذي يرأسه نيمتز أن سرعة الموجات داخل الأنفاق يمكنها أن تصل إلى سبعة أضعاف سرعة الضوء، نجح فريق من علماء جامعة بيركلي في كاليفورنيا من نقل فوتونات عبر هذه الأنفاق بسرعة بلغت ضعفي سرعة الضوء. والأغرب من ذلك أن المجسات الإلكترونية التي رصدت وقت وصول الفوتونات إلى هدفها أفادت أن هذا الوقت سبق وقت إطلاقها!!

فهل في الأمر انهيار لنظرية أينشتاين؟ أم لا تعارض بين النظرية التقليدية والتجارب الجديدة؟

العلماء منقسمون حول هذا السؤال. فعالم الرياضيات الألماني ديور ينقض صحة التجربة، أما مواطنه كريمر الذي يدرِّس في إحدى جامعات أستراليا، فيحاول تفسيرها بما لا يتناقض مع نسبية أينشتاين.

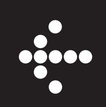
وفيما يحتدم الجدل بين العلماء الألمان، بدأ الفيزيائيون الأمريكيون ينظرون للسرعة «فوق اللانهائية»، ومن تجاربها المفترضة (غير المحققة حتى الآن) ما يقول إن إرسال شرارة بمثل هذه السرعة سيجعلها تصطدم بنفسها وهي عائدة من الطرف الآخر لتنفجر في وسط النفق.

صحيح أن كل هذه التجارب لا تزال عند مستوى الفوتونات والموجات الكهرومغناطيسية، ولكن الأسئلة التي تثيرها هذه المكتشفات باتت تتجاوز علم الفيزياء نفسه لتصل إلى الفلسفة.

ففي المؤتمر الذي عقدته جامعة كولونيا لمناقشة اكتشاف نيمتز، حضر عدد من الفلاسفة إلى جانب علماء الفيزياء والرياضيات، الأمر الذي لم يسبق أن حصل في أي منتدى علمي سابق.

حتى نيمتز نفسه الذي يؤكد الحقائق العلمية في تجربته، يقول إنه لا يستطيع أن يدرك ذيولها، التي تبقى من اختصاص الفلاسفة لا الفيزياء.

* كاتب مقيم في لندن



الملف المصور

عبد الرحمن الفنتوخ

الطفل ملتفت..

والكلُّ في خشوع.

يهم للصعود

ونحن نعينه..

سوف يطل على

الدنيا من علٍ..

والنافذة كالشرفة..

الحياة تدور

كنول حياكة

وتدور معها الألوان

وأوجه الأطفال الكثر!

والطين يتطاير

فيضحك الطفل في الزاوية.

ثم يسجوا الليل..

إذا سجى!





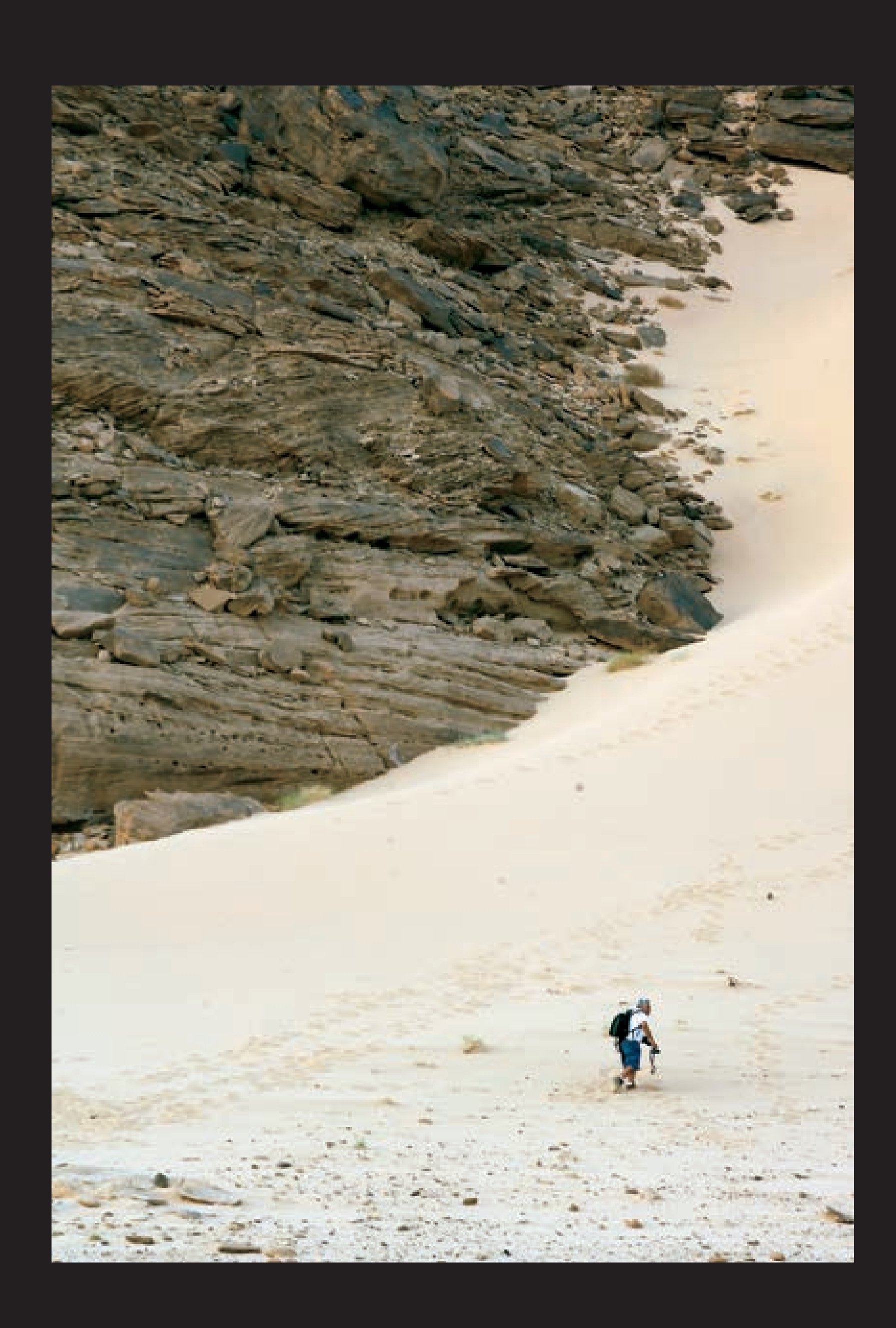



Arabian Travel Market
2007
2007





المصور عبدالرحمن الفنتوخ





عبدالرحمن الفنتوخ

مصور سعودي شاب، ولد عام 1981م، وحصل على بكالوريوس التسويق من جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، ويعمل حالياً ضمن فريق الهيئة العليا للسياحة.
تموج أعماله الفوتوغرافية بالحركة، وربما يتضح ذلك أكثر ما يكون في سلسلة الأعمال المختلفة التي تولاها كمصور، بدءاً من تغطيته لرالي حائل، ومروراً باعتماده المصور الرسمي لبرنامج التربية المدرسية (ابتسم) ومشاركته في تغطية احتفالات عيد الفطر المبارك وعدد من التغطيات الخاصة برياضة الشباب، وانتهاءً بكونه المصور الرسمي لرحلة الرياح العربية الجوية، وتنسيقه لمشروع كتاب «المملكة بعدسات شبابها».



حياتنا اليوم

هل شاهدت المحرِّك؟

هل ألقى أحد نظرةً على محرك سيارة أخيراً، وشعر أنه يشاهد آلة عفى عليها الزمن؟

ما زالت المحركات، ومنها محرك السيارة، تقوم بكل ما كانت تقوم به منذ نحو قرنين من الزمن، وهي حصة كبيرة مما يمكن تصنيفه من أدوات النهضة الصناعية. وما زالت فكرة المحرك راسخة عميقة الجذور في الحضارة المعاصرة برمتها. فالمحرك، هذا الجهاز المعقَّد المكون من قطع كثيرة مختلفة الأشكال، حين يُعطى إشارة التشغيل تتحرك أجزاؤه دفعةً واحدة كجسد دبَّت فيه الحياة فجأة، لتقوم بحركات مختلفة لا يشبه بعضها البعض، ولكن ضمن عمل مترابط متجانس كي تنجز مهمة واحدة، بفعالية واختصار للوقت، كانت تأديتها في الماضي إما غير ممكنة أو تحتاج إلى مراحل عديدة وزمن طويل.

لقد كانت قدرة الإنسان على إنشاء مثل هذه الأجهزة تجسيداً لمستوى جديد من الكفاءة التي اكتسبتها عبر الكفاح مع العلم الصناعي والمعرفة الميكانيكية. وكأنه انتقل من خلاله من الأداة الثنائية الأبعاد إلى الأداة الثلاثية الأبعاد. ولا شك في أن مشهد المحرك -أي محرك- نتج منه انفعال حماسي ودهشة شديدة حين رآه الناس في المرات الأولى، وحرَّك في النفوس ما يمكن تسميته مجازاً عاطفة «التقدم».

إنه مشهد مدهش لجهاز اختلف في تكوينه وتشكيله وحركته عن أي شيء ألفه الإنسان من قبل، أكان في شكل أدوات المحرك السابقة أو حتى في حركة الإنسان أو النبات أو الحيوان. هيكل مكوَّن بشكل غير معتاد غير متواز، يساره لا يشبه يمينه، لكل جزء من أجزائه شكل لا يَدرُج بالضرورة في أية علاقة شكلية مع أي جزء آخر بل يخضع للوظيفة التي يقوم بها، ولكن المشاهد يدرك في نهاية المطاف أن كل هذه الأجزاء بوظائفها مترابطة ضمن وظيفة المحرك الأساسية كائنة ما تكون.

وربما انتقلت هذه الدهشة في إنجاز المحرك لوظيفته، إلى مجالات أخرى لتشكِّل استفادة من العبقرية الجديدة التي مثَّلها المحرك لتحقيق تغيير رئيسي ونقلة في مستوى الأداء فيها. ولا شك في أن فكرة الأجزاء المختلفة المتداخلة التي تؤدي مجتمعة وبانسجام عام وظيفة واحدة يمكن مشاهدتها في أوجه نشاط كثيرة حولنا في الحياة المعاصرة. إن من يقف أمام فرقة للموسيقى السيمفونية، وحتى من دون أن يغض «السمع» عن الألحان الصادرة عنها، يرى مشهداً لمحرك بكل ما في كلمة محرك من معنى. حركة عازفي الكمان في اتجاه، ونافخي الأبواق في آخر، والطبول والدفوف، وعازف البيانو كل في دنياه. كلها تتحرك بإشارة تشغيل، وتستمر في هذه التحركات غير المتوائمة فتخرج معزوفة بديعة في تنوعها تامة في انسجامها. ومشاهد شبيهة نراها أو لا نراها على هذه الدرجة من الوضوح في عمل خط سير صناعة السيارات أو فرق إنتاج الأفلام، أو إدارة الشركات أو حتى كرة القدم.

وربما تكون أهم سمات المحرك الفكرة، أنها تُخضِع الجزء، رغم فرادة دوره، لخطة الكل في عملية التشغيل الكبرى فيكون -وكما كان يذكر أحياناً من باب الاستنكار في وصف وظيفة الفرد ضمن الفريق- عتلة في محرك كبير. ورغم أن هذه الفكرة نفسها ليست جديدة تماماً في علاقة الفرد بالجماعة، إلا أنها في المحرك وصلت إلى ذروة جديدة في الفعالية. ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى أن الإنسان على أبواب العصر الحديث اكتسب قدرة جديدة على تصور «كلّ» أكثر تعقيداً بهذه الأجزاء المختلفة لم يكن الإنسان نفسه قادراً على جمعها في خياله لتشكل سوية هذا التشييد المدهش.

ثم، ألا يمكننا اعتبار المحرك أحد أجمل منحوتات العصر الحديث، لا في حالة السكون فقط، بل في حالة التشغيل أيضاً؟ لو لم يكن كذلك لما تجرأ بعض صانعي أرقى الساعات بطرح موديلات ذات هيكل زجاجي يمكنك من خلاله أن ترى محرك الساعة، الذي يعود إلى عصر يسبق حتى محرك الطاقة والوقود.

أما اليوم وقد غزت حياتنا الأجهزة الإلكترونية التي تحرك الأشياء بالإشارات الرقمية، هل بدأت النفس الإنسانية تنسى دهشة المحرك إلى دهشة جديدة مختلفة؟ هل تحل الفرق الافتراضية على الشاشات المسطحة، مكان الفرق الثلاثية الأبعاد، وتعرفنا على صناعة أخرى. حياة أخرى؟

كميل حوا 

لماذا نتقبَّل بعضها ونرفض البعض الآخر

دور البشر في حياة الأفكار



ما بين البشر والأفكار تأثير متبادل. فالأفكار تؤثر في حياة البشر حين تدخلها، إذ تغيِّر الطريقة التي يترتب بها محيطهم والطريقة التي ينظرون من خلالها إلى هذا المحيط ويتفاعلون معه. وفي المقابل يؤثر البشر في حياة الأفكار. فهم الوسيط الذي يروِّج لها ويتبناها ويرفضها، إضافة إلى أن عقولهم هي الآلة التي تبدعها، وأفعالهم هي الوسيلة التي تضعها موضع التنفيذ.

وإذا كان دور الأفكار في حياة البشر معروفاً معرفة كافية، فالنادر أن يلقى دور البشر في حياة الأفكار الضوء الذي يستحقه. وهذا ما تتناوله ليلى أمل* هنا.

* باحثة من مصر



Corbis

لـو نظرنـا إلى العلاقة بين البشر والأفكار عبـر مـراحل كثيرة من تاريخ طرفيها، لوجدناها تختلف في الاتجاه الذي يسير فيه القدر الأكبر من التأثيـر. ويكون ذلك محكوماً بالثقل النسبي الذي يملكه أحد الطرفين فـي ميـزان الآخـر، والطـرف الأثقـل يكـون هـو صاحـب التأثيـر الأكبر، والأسهم الأغلى في هذه العلاقة.

وعلـى مدى عقـود طويلة كانـت الأفكار هـي صاحبة الثقل الأكبر، والتأثير الأوضح. لكن عصرنا الحاضر بخصائصه ومفرداته المختلفة، حمل الكثير من التغيير إلى ملامح تلك العلاقة، وحرك نقطة التوازن بها أميالاً لصالح البشر.

إلامَ تحتاج الفكرة من البشر وسط تضخم حجم المعلومات؟

«الإكسابايـت» هي وحـدة لقياس المعلومـات تساوي بليون جيجـا بايت، وهـي ما يعـادل حجم المعلومـات التي يمكن أن تحتويهـا سبعـة آلاف مكتبـة بحجم مكتبـة الكونجرس الأمريكـي، أضخم مكتبة في العالم. إذن ماهي المعلومات التـي يعـادل حجمهـا خمسـة إكسابايـت؟ هـي بالطبـع المعلومـات التي يمكـن أن تحتويها 35 ألـف مكتبة بحجم مكتبـة الكونجرس، وهي أيضـاً كل الكلمات التـي تكلمها البشـر منـذ وجودهم على الأرض. وهي فـي النهاية تلك المعلومـات الجديدة التي تنتج كل سنة منـذ بداية الألفية الجديدة.

عصـر المعلومـات؟ هذا مـا نعرفـه عن العصـر الذي نعيشـه الآن. لكن هنـاك من يـرى أن عصرنا هو عصر كل المعلومـات استنـاداً إلـى النتيجة التي توصـل إليها فريـق بحث من كليـة إدارة المعلومات بجامعة كالفورنيا الأمريكيـة فـي دراسـة شملـت كل الصـور التـي تُنتـج بواسطتها المعلومات سواء أكانت مطبوعة على الورق، أو مخزنة على وسائـط إلكترونية، أو على الإنترنت. وسواء أكانت مقـروءة أو مسموعة أو مرئية، وذلك للإجابة عن سؤال: مـا مقدار المعلومات الجديدة التـي يتم إنتاجها سنوياً؟.

وكمـا نعـرف فـإن المعلومـات لا تأتـي وحدهـا. إذ إن المعلومـات هي المادة الخام للأفـكار، وحين يصبح هذا المقـدار الهائل من المعلومات متوافـراً أمام عدد متزايد مـن البشر، تزداد السرعة التي تتولد بها الأفكار. إن وفرة المعلومات هـي في جزء منها وفرة فـي أساليب الاتصال التي تنتقل خلالها، والتي توفر بدورها وسيلة فعالة لعرض تلك الأفكار، ونشرها على مساحات واسعة وبين أكبر عدد ممكن من البشر.

لكن وفـرة المعلومات يمكنها أن تشـكِّل تهديداً خطراً على الأفـكار، وبالقدر نفسه الذي يمكنهـا أن تشكِّل دعماً هائلاً لها. فقـد أثبتـت التجربـة الإنسانية خلال العقـود القليلة الماضية، صدق ما توقعه عالم الاجتماع والمفكر الأمريكي



هربرت سايمون حين تحدث عن الخصائص السلبية لبيئة شديدة الغنى بالمعلومات. فهذه الوفرة المفرطة في المعلومات والأفكار التي تنتجها هذه المعلومات، لابد وأن يقابلها نقص في شيء آخر، وبالتحديد في الشيء الذي تستهلكه هذه الوفرة نفسها. وهو ما عرفه سايمون بأنه انتباه من يتلقاها.

وفرة الأفكار الزائدة جعلتها تتنافس في اكتساب انتباه البشر

أي أن هذه الوفرة الهائلة في الأفكار، أوجدت بيئة تتسم بالتنافس الشديد بينها، هو في الأساس تنافس على انتباه البشر لها. وأصبح الحد الفاصل في حياة الفكرة واستمرارها هو مقدار الانتباه الذي تحصل عليه، وهو ما أدى إلى أن يصبح التأثير الذي يحدثه البشر في حياة الأفكار، هو التأثير الأكثر وضوحاً والأعلى صوتاً.

تواجه الأفكار الجديدة تحدياً صعباً حين تخرج إلى الحياة لأول مرة، يكون فيه اختلافها، رغم كونه العامل الذي يحمل الكثير من جاذبيتها، هو العامل الذي يهدد احتمال نجاحها واستمراها. فالأفكار الجديدة التي تدخل إلى حياتنا قدراً كبيراً وملحوظاً من التغيير، يتطلب تبنيها قراراً واعياً، متقبلاً لهذا التغيير، وأحياناً مندفعاً إليه. وبالتالي تحتاج الفكرة الجديدة إلى جذب أكبر قدر من الانتباه، لأن هذا الانتباه شرط أساسي وخطوة أولى ضرورية في قبولها واعتمادها لدى متلقيها.


Corbis

لماذا يعير البشر الانتباه؟

نستطيع أن نعرف الإجابة عن هذا السؤال إذا تتبعنا ما تقوله دراسات علماء النفس وعلماء الاجتماع وخبراء التسويق والاقتصاد، الذين يرون أننا نعير أكبر قدر من الانتباه للأشياء التي تمس الحاجة الأصيلة في التكوين الإنساني. هذه الحاجة التي تنتمي في مجملها إلى ثلاثة أنواع: الحاجة إلى المعرفة، والحاجة إلى الفعل، والحاجة إلى العلاقات الاجتماعية مع آخرين.

وعلى الرغم من وجود هذه الأنواع الثلاثة من الحاجة لدى كل البشر، إلا أن وجودها يتفاوت في حجمه بينهم، نتيجة طبيعية للتنوع الهائل في شخصيتهم وسلوكهم وخلفيتهم الثقافية والاجتماعية. ولهذا نجد واحدة منها تحتل مقعد القيادة، وتكون هي الدافع الأول الذي يحرك انتباه صاحبه، ويصبغ رؤيته للأفكار التي يجدها من حوله.

ونتيجة لاختلاف البشر في أنواع انتباههم الأساسي، فإن الأفكار التي تجذب انتباههم تختلف كذلك، تبعاً للخصائص المميزة لكل نوع من أنواع الانتباه. فالانتباه الذي تحركه المعرفة، تجذبه الأفكار المنطقية التي تطلبت جهداً عقلياً في بنائها، ولهذا نجد أن صاحبه يقيس جاذبية الأفكار بمدى جودتها، وجدواها في إنجاز المهام التي نشأت كي تؤديها. وهو يولي عناية خاصة للأفكار التي تفتح له بدورها أبواباً لمعرفة عوالم جديدة غير تلك التي اعتادها.

والانتباه الذي يحركه الفعل، تجذبه الأفكار الجريئة التي تكون وسائط للحركة والتغيير، ونوافذ يطلق عبرها صاحب هذا النوع من الانتباه حماسه وشغفه وقدرته الهائلة على التأثير والإقناع.

والانتباه الذي تحركه العلاقات الاجتماعية، تجذبه الأفكار التي تربط صاحبه بالآخرين وبالعالم. والتي يستطيع من خلالها أن يظهر ملامحه الشخصية ويوضح ذوقه وتفضيله الخاص، والتي يتقاسمها مع الآخرين داخل دائرته الاجتماعية الواسعة.

التسويق والإعلان: إلى انتباه معين

وحين ننظر للأفكار التي استطاعت أن تجد لنفسها مكاناً ثابتاً في حياة قطاعات واسعة من البشر، نجد أنها نجحت في ذلك، لأنها تمتلك ماتجذب به هذه الأنواع الثلاثة من الانتباه. ففكرة البريد الإلكتروني على سبيل المثال، تطبيق تكنولوجي عملي شديد الفعالية والكفاءة، من حيث سرعته، وكونه سهلاً ومتاحاً في كل وقت. وأداة مهمة للتأثير ولتوصيل فكرة ما لعدد كبير من الناس بكبسة زر فقط. وهو كذلك طريقة للبقاء على اتصال مع الأهل والأصدقاء وتبادل الحديث والأخبار حتى مع بعد المسافة، وازدحام جدول المهام اليومية.

انتشرت فكرة زرع نوع جديد من الذرة تدرجا من مجموعة صغيرة إلى شريحة واسعة، ورفضها المزارعون المحافظون

وعلى مستوى آخر، نجد أن المنتجات التي أحرزت نجاحاً تجارياً كبيراً وتفوقت على مثيلاتها، كان خلف نجاحها حملات إعلانية خاطبت بتركيز وكثافة، واحداً من المفاتيح الثلاثة التي تتحكم في أبواب الانتباه. فرغم الدراسات الكثيرة التي تناولت هذا الأمر، إلا أن الواقع يقول إن لا أحد يعرف عن الانتباه أكثر مما يعرفه خبراء الدعاية والإعلان. وإننا نستطيع أن نفهم الكثير عنه، لو تابعنا بدقة الرسائل التي تبثها إعلانات التلفزيون خلال فاصل إعلاني واحد يتخلل برنامجنا التلفزيوني المفضَّل.

هناك الرسائل التي تخاطب المعرفة، ونجدها في الإعلانات التي توضح الدور الذي تلعبه منتجاتها في إطلاعنا على مقدار أكبر من المعلومات، سواء أكانت تلك المنتجات مطبوعات أو قنوات إخبارية أو وسائل اتصال أو الإعلانات التي تسند تفوق منتجاتها إلى نتائج أساس معرفي قوي توصلت إليه الدراسات العلمية، هذه الكلمة التي لها ثقل كبير في إثارة هذا النوع من الانتباه. كذلك نشاهد إعلانات شركة عالمية لأغذية الأطفال، تخبرنا أنها تعد منتجاتها وتطورها تبعاً لنتائج الأبحاث العلمية التي توصل إليها خبراء الأغذية في معاملها.

كما نجد الرسائل التي تخاطب الرغبة في الفعل، في الإعلانات التي تقدم منتجاتها بصفتها رموز الحياة العصرية التي تضج بالحركة والصخب، أو تربط امتلاكها بامتلاك قدر أكبر من الطاقة والقدرة على الفعل. وهو ما نجده في إعلانات السيارات، والملابس الرياضية، والمشروبات، التي اشتهر واحد منها بسبب إعلاناته التي يخرج فيها بطل الإعلان دائماً من مآزق ومواقف صعبة ومحرجة، بفضل الأجنحة التي يعطيها إياه ذلك المشروب.

أما النوع الأخير من الرسائل فنراه حين تعرض الإعلانات منتجاتها ضمن الملامح الثابتة في علاقة اجتماعية فيها الكثير من الود والألفة والتناغم. فأحياناً تكون السلعة هي الرابط الذي تجتمع حوله العائلة في أوقاتها السعيدة، وأحياناً يكون الرابط الذي يتقاسم الاهتمام به عدد من الأصدقاء، أو قد يتسع هذا النطاق ليشمل البشر في العالم كله، أو في مجموعة كبيرة من الدول يخدمها هذا المنتج. كما فعلت شركة اتصالات عربية في حملة إعلانية تجمع بين الذكاء التجاري، والحس الإنساني العالي، لتقدم نفسها رابطاً يجمع عدداً كبيراً من البشر، يبقيهم على اتصال، ويعزِّز القيم التي يتقاسمونها جميعاً على اختلاف لهجاتهم وألوان بشرتهم.

حياة الفكرة واستمراريتها

من النتائج المهمة التي أحدثتها وفرة الأفكار، هي أنها غيَّرت الاعتقاد السائد بأن نجاح الفكرة في جذب الانتباه في بداية ظهورها، كاف ليضمن لها قدرتها على الاستمرار ونجاحها على المدى الطويل. فكما تواجه الفكرة الجديدة منافسة عالية في مراحلها الأولى، فإنها تواجه مثلها في المراحل التالية من عمرها. والبداية القوية، لم تعد تعني أن النجاح أصبح مسألة وقت فقط.

ولكي نفهم هذا الفارق بين القدرة على النجاح الأول، والقدرة على الاستمرار، علينا أن نعرف كيف تحيا الفكرة بعد ميلادها، وكيف يتعامل معها البشر خلال مراحل عمرها المختلفة.

في عام 1943م قدَّم الباحثان الاجتماعيان بروس رايان ونيل جروس دراسة عن الطريقة التي انتشرت بها فكرة زراعة نوع جديد من حبوب الذرة بين مزارعي إحدى مقاطعات ولاية أيوا الأمريكية. وعلى الرغم من أن هذا النوع من الحبوب كان متميزاً عن

الأنـواع الأخرى التـي يستخدمها المزارعـون منذ عقود، إلا أن استخدامـه لم ينتشر فـوراً بين مزارعي المقاطعة. ففـي الموسـم الأول، لم يقـدم على زراعة النـوع الجديد إلا عـدد قليـل مـن المزارعين يعد علـى أصابـع اليدين. وفـي الموسم التالي، قـرر 16 مزارعاً آخريـن أن يجربوا زراعـة النوع الجديد. ثم انضـم إليهم 21 مزارعاً، ثم 36 مزارعاً في الموسم الذي يليه. وعلى مدار المواسم التالية التـي سجلتها الدراسة كان عـدد المزارعين الجدد الذين يتحولون لزراعة النوع الجديد من الذرة هو 61، ثم 46، ثم 36، ثـم 14، ثم 3. وفي العام الأخيـر لم يبق إلا اثنين من مزارعي المقاطعة يستخدمان الحبوب المعتادة، أما باقي المزارعيـن البالغ عددهم 259 فقد تحولوا لزراعة حبوب الذرة الجديدة في أرضهم.

احتـاج الأمر في بدايته إلى هـؤلاء المغامرين الذين قرروا زراعة الحبوب الجديدة على سبيل التجربة. لم يفكِّر هؤلاء في أن هناك مـن يقول إن الحبوب الجديدة أفضل من تلك التـي اعتادوا زراعتها منذ زمـن، ولكنهم لن يعرفوا إن كان ذلـك صحيحاً أم لا إلا إذا جربوهـا بأنفسهم في حقولهم، ومن هنا أخـذوا القرار الذي يقـول: «إذن فلنجربها الآن». هنـاك بعض المخاطرة في هـذه التجربة، لكـن المكسب الـذي سيحصلون عليـه إن كانت الحبـوب الجديدة أفضل مـن المعتادة، سيكـون مكسباً مضاعفـاً. إذ إن محصولهم فـي هـذا الموسم لـن يكون أفضـل من سابقه فقـط، لكنه سيكـون أيضاً أفضل من كل المزارعيـن الآخرين. وبعد أن نجح الأمـر معهم، تقدمت الحبوب الجديـدة خطوة أخرى حين لفتت تلك النتيجة نظر مجموعة أخرى من المزارعين لاحظوا تفوق الحبوب الجديدة، واقتنعوا بزراعتها. وهؤلاء، وإن لم يكن تفكيرهم مغامراً كفاية ليكونوا أول من يزرعها، إلا أن هـذا التفكير كان مرناً كفاية ليقرر ترك الشيء الذي اعتـادوه وتقبل الجديـد وتبنيه ما دامـت احتمالات نجاحه عالية. ولو أننا مثَّلنا انتشار الحبوب الجديدة بيانياً، سنجد أنـه قد تبع منحنى بدأ ببـطء حين تبنته المجموعة الأولى، ثـم ارتفـع تدريجياً حين انضـم إليهم مزارعـو المجموعة الثانية.

إلا أن المنحنـى لم يرتفع ارتفاعـاً ملحوظاً ومؤثراً إلا حين انضمت إليه كثرة المزارعين خـلال المواسم التالية. فقد فضَّـل بعض هؤلاء الانتظار حتـى تثبت التجربة نجاحها مع من جربوها قبلهم، وحتى يتيقنوا من أن الأمر حقيقي، وأنه لم يحـدث نتيجة ظروف معينة، أو نتيجـة مصادفة جيدة. وكان بعضهـم أكثـر تحفظـاً، وفضـل الانتظـار أكثر حتى يصبـح استخدام هـذا النوع من الحبوب هـو الأمر السائد والمألـوف في المقاطعة. بعد ما بلـغ المنحنى لأعلى نقاط ارتفاعه،كانت المقاطعة كلها قد انتقلت إلى زراعة الحبوب الجديـدة، عدا تلك الشريحـة التي تكره فكـرة التغيير في ذاتها، ولا تجد سبباً مقنعاً كفاية لأن تترك الحبوب القديمة التي اعتادت زرعاتها سنوات وسنوات.



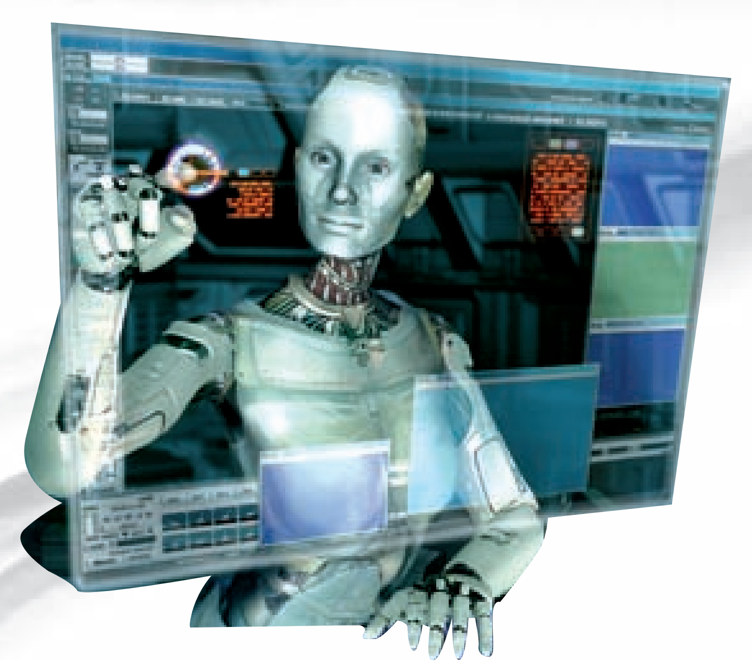
Corbis

بعد ما نشر رايان وجروس دراستهما، لفت النموذج الذي قدمته الدراسة انتباه عدد من الباحثين في الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتسويق. إذ وجدوا فيه تمثيلاً دقيقاً للمراحل التي تمر بها الفكرة الجديدة في رحلة حياتها، التي تتحدد كل مرحلة منها على أساس طبيعة الشريحة التي تتبناها من البشر المتلقين لها. فكل فكرة جديدة تحتاج إلى قلة مغامرة تقدم على تجربتها أول مرة. وتحتاج لمن يتقبلها بمرونة حين يرى الإشارات الأولى لنجاحها. وتحتاج أن تدعمها بعد ذلك كثرة تعطيها ثقتها وتثبت أقدامها في الأرض، كي تنتقل من كونها مجرد فكرة أخرى جديدة إلى كونها فكرة جديدة ناجحة. وهي مع ذلك ستجد دوماً من يعزف عن تبنيها، وأحياناً يعارضها، رغم نجاحها مع البقية.

> تصادف الأفكار الجديدة خمس فئات من البشر: الراغبين في التجديد والحالمين بالمستقبل والمتحفظين من الجديد والباحثين عن الفائدة، والرافضين المحافظين

خمس فئات من البشر في التعامل مع الفكرة الجديدة

كان أحد أهم من التفتوا إلى النموذج الذي طرحه رايان وجروس، خبير الإدارة وتسويق التكنولوجيا الأمريكي جيوفري مور، الذي حوَّل هذا النموذج إلى أداة دقيقة وفعالة لدراسة عوامل نجاح المنتجات التكنولوجية الجديدة، تبعاً للمراحل التي تتفاعل فيها مع متلقيها على اختلاف طبيعتهم. إذ يمر أي نتاج تكنولوجي في رحلة عمره بخمس فئات من البشر أو المستهلكين، لكل فئة خصائصها الاجتماعية والثقافية التي تميزها، وتحكم الطريقة التي تتعامل بها مع التكنولوجيا الجديدة.



الفئة الأولى هي فئة المجددين، وهم الذين تحتل التكنولوجيا مكاناً مهماً ومركزياً في حياتهم بغض النظر عن الدور الذي تؤديه هذه التكنولوجيا. فالتكنولوجيا شيء له سحر خاص عندهم، ولذلك فإنهم يبحثون عنها، ويتتبعونها، ويقدِّرون فيها ما لا يقدره البقية. وحين تظهر تكنولوجيا جديدة على نطاق ضيق، تجدها لديهم قبل طرحها رسمياً في سوقها، وبدعاية مكثفة. وشراؤهم لها شيء لا يخضع لقائمة من المميزات والعيوب، بقدر ما يخضع للإعجاب بفكرة التطور التي تمثلها، ومتعة استكشاف الخصائص الجديدة التي تحملها إليهم.

الفئة الثانية تضم أصحاب الرؤية البعيدة. ومثل الفئة الأولى، يتبنى هؤلاء النتاج الجديد في مرحلة متقدمة من طرحه في السوق، لكن دوافعهم لذلك تكون مختلفة. سحر التكنولوجيا وحده لا يكفيهم كي يتخذوا هذا القرار، لكن لديهم طريقة التفكير التي تجعلهم يتفهمون ويتقبلون ويقدرون بسهولة ما تقدمه هذه التكنولوجيا الجديدة ثم يجدون بكثير من الحدس والرؤية، رابطاً يربطها باهتماماتهم الأصلية. وحين يظهر هذا الرابط، فإنهم يتخذون قرار الشراء.

تنتمي هاتان المجموعتان إلى «النخبة التكنولوجية»، التي لديها دراية كبيرة بهذا العالم تجعلها أول من يعرف بكل جديد فيه، وتمكنها من تقدير هذا الجديد، ورؤية الاحتمالات الواعدة التي يحملها. هذه النخبة هي الشريحة الأولى من المستهلكين .. الخطوة الأولى في طريق التسويق. وإقبالهم على نتاج معين، هو الإشارة الأولى لكون هذا النتاج شيئاً جيداً يستحق الانتباه، ويستحق النجاح.

تأتي بعد ذلك الكثرة البعيدة عن مركز التكنولوجيا، وهي الفئات الباقية. فالفئة الثالثة هي التي تفكر في التكنولوجيا بطريقة عملية خالصة، وبعين متفحصة وناقدة، ترى دوماً احتمال أن تكون هذه التكنولوجيا



الجديـدة مجـرد موجـة رائجـة ستنتهي سريعـاً، ولن تترك أثراً، وبالتالي فإن الناس من هذه الفئة يحتاجون إلى «تزكية» مصادر موثوقة للنتاج الجديد، ويحتاجون أيضـاً أن يروا نتائج مادية ملموسـة حققها هذا النتاج حين استخدمـه غيرهم، قبل أن يقبلوا هم على شرائه واستخدامه.

والفئة الرابعة هي التي تقيِّم التكنولوجيا تبعاً لفائدتها العمليـة لها، لكنهـا لا تقبل على شرائها فـور اقتناعها بكونهـا مفيـدة. هذه الفئـة تحتـاج إلى خطـوة أعلى: الاقتنـاع بكونهـا مطلوبـة وضرورية. فقبل شـراء نتاج معيـن، عليهـم الانتظـار والتيقـن من كونه قـد أصبح نتاجاً رائجاً. وحتى بعد أن يتخذوا قرار الشراء، فإنهم يتصرفون بدرجة عالية من الحذر، ويلجأون دائماً إلى الشـركات الكبرى المعروفة، للحصـول على أكبر قدر ممكن من الضمان.

وفي النهايـة تأتي الفئة الأخيرة وهم المشككون. تلك الفئة التـي لا تهمها التكنولوجيا بأي حال لأسباب عديدة، بعضها شخصيـاً وبعضهـا اقتصادياً. ويشككون دومـاً في فائدتها لهـم، حتى لو ثبتت فائدتها للجميـع. هذه الفئة التي لا ترى في الهاتف المحمول سوى وسيلة إزعاج مروعة، ولا ترى في

الكتب الإلكترونية، سوى خطراً يهدد المعرفة التي يجب أن تطبع على الورق.

تمثل الأغلبية نسبة 84% من حجم السوق، ويعطيها هذا ثقلها الكبير في ميزان النتاج الجديد. لكن تأثيرها لا يكمن في هذا الثقل العددي وحده. فالكثرة هي التي تعطي النتاج «شرعيته»، وتثبت أقدامه في السوق، وتنقله من خانة النتاج الجديد، إلى خانة النتاج المهم الذي يحتاجه الكثيرون ويعتمدون عليه في حياتهم بصورة مكثفة ويومية. ومن دون دعم الأغلبية، يصبح هذا النتاج موجة وقتية تنتهي فور أن تخفت الدهشة الأولى لاستقبالها عند النخبة.

كتاب «كيندل» الإلكتروني سيكون أهم جهاز في المستقبل القريب مع انه لم يدَّع أنه ابتكار تكنولوجي مبهر

انتباه النخبة لم يعد يكفي

حين يحصل النتاج الجديد على انتباه النخبة، يكون خطا أولى الخطوات على طريق نجاحه، لكن هذا لا يعني أن هذا النجاح أصبح مضموناً. فحصول نتاج معين على انتباه النخبة، لا يعني بالضرورة حصوله على انتباه الكثرة، إذ إن كلا الفئتين ينظر إلى التكنولوجيا نظرة مختلفة، وتدفعهما لتبنيها أسباب مختلفة. ولهذا يرى خبراء تطوير التكنولوجيا وتسويقها أن المنتجات التكنولوجية الناجحة، هي تلك التي تستطيع أن تحقق التوازن بين اهتمام النخبة، واهتمام الكثرة بها.

هذا التوازن هو الذي اعتمد عليه نجاح واحد من أكثر المنتجات التكنولوجية شهرة وانتشاراً اليوم: الآي بود. فحين ظهر أول مرة، لفت الآي بود انتباه النخبة بتصميمه الذي يقدم معنى مختلفاً لتكنولوجيا عالية المستوى، تعتمد البساطة مبدأ مهماً فيها. كان الآي بود في أول عهده نتاجاً نخبوياً بكل المقاييس، لا سيما وأنه يحمل توقيع شركة «آبل» العملاقة التي يراها مستخدمو التكنولوجيا شركة نخبوية. وبعد ما فاز الآي بود بثقة هذه الشريحة بطرزه الأولى، اتجه بطرزه اللاحقة نحو الكثرة، وأعاد تشكيل صورته ليتحول من قطعة أنيقة من التكنولوجيا، إلى قطعة عملية من مستلزمات الحياة اليومية. فأصبح تصميمه أكثر عصرية، وطُرح في أشكال وألوان وسعات تخزين مختلفة، ليختار كل مستهلك ما يناسبه، تبعاً لذوقه ونمط حياته والطريقة التي يفضل أن يطالع بها أفلامه وصوره وموسيقاه.

وإذا كانت هذه النظرة الواعية إلى دور الشرائح المختلفة من البشر، قد منحت «الآي بود» المركز الأول في سوق أجهزة الموسيقى الرقمية الشخصية، فإن دورها حيال منتجات إلكترونية أخرى يتعدى دور حسم مركز الصدارة في سوقها، ليصل إلى نجاح الفكرة التي تقوم عليها هذه المنتجات من الأساس. وهذا ما سنراه لو ألقينا نظرة على فكرة تكنولوجية تحاول النجاح هذه الأيام، وهي الكتب الإلكترونية. هذه الفكرة التي لم تتحرك إلى المساحة التي تصبح فيها مكوناً من حياتنا اليومية رغم الوعود الكبيرة التي يقطعها مناصروها. لكن مراقبي هذه السوق يتوقعون أن تقفز الكتب الإلكترونية قفزة هائلة بعد ما قدمت شركة أمازون نتاجها الجديد لقراءة الكتب الإلكترونية، «كيندل» وهو اسم هذا الجهاز، الذي أحرز مبيعات كبيرة في الأشهر الأول من طرحه، وكسب الكثير من المؤيدين، إلى حد جعل الكثيرين يؤكدون أنه سيصبح الجهاز الأهم خلال المرحلة القليلة القادمة. فبماذا اختلف كيندل عن أجهزة القراءة الإلكترونية الأخرى؟ والجواب: أنه لم يقدِّم نفسه للسوق على أساس كونه ابتكاراً تكنولوجياً مبهراً وحديثاً كما قدمت الأجهزة الأخرى نفسها في السوق، ولكن الصورة التي رسمها لنفسه كانت أنه وسيلة مختلفة لقراءة الكتب. أولاً ظهر في السوق عبر «أمازون» عملاق التجارة عبر







الإنترنـت، الذي تحتل الكتب والمطبوعـات واحداً من أكبر أقسامه وأهم بضائعه. أي أنه قدَّم نفسه لمستهلكين هم في الأساس الجمهور القارئ، على عكس الأجهزة الأخرى التي طرحتها فـي السوق شـركات تكنولوجية شهيـرة، تخاطب جمهوراً مؤلفاً في الأساس مـن متتبعي التكنولجيا الحديثة والمعجبيـن بها. وبالتالـي، لم يتوجه كينـدل إلى مخاطبة جمهور نخبوي، وإنما وسع قاعدته ليصل إلى الكثرة. كذلك راعـى في تصميمه قيمة «العملانيـة» أكثر من قيمة الأناقة والعصرية، فخرج بلون أبيض وبأزرار بارزة وبتصميم بعيد تماماً عن التصاميم التي خرجت بها الأجهزة الأخرى والتي تراعي الصورة النمطية للأجهزة الحديثة: أحجام صغيرة، وسمك قليل، وألوان معدنية مصقولة. هذه العملية والسهولة الكبيـرة في الاستخـدام، ستجعـل دخول الجهـاز الجديد حياتنا شيئـاً لا يتطلب الكثير من الجهـد والتعلم، وبالتالي سيكـون الطريق أمامه ممهداً لدخول حياة أكبر عدد ممكن من البشر، لا بصفته ابتكار تكنولوجي مبهر سيغير مستقبل القـراءة والكتاب المطبوع، وإنما كوسيلة مختلفة لقراءة ما اعتدنا عليه، بوسيلة جديـدة ترتكز على التكنولوجيا. وهي الرسالة التي أكدها جيف بيزوس المدير التنفيذي لأمازون في المؤتمر الصحفي الذي طرحت فيه الشركة نتاجها أول مرة، حين قال إن شركته لا تريد لنتاجها أن يكون بديلاً من الكتاب المطبوع، لكنها تريـد أن تستخدمه لخدمة القراءة فـي المساحـة التي لا يستطيـع الكتاب المطبـوع أن يذهب إليها.

وكمـا يسيـر الأمر مـع المنتجـات التكنولوجيـة، يسير مع غيرهـا مـن الأفكار الجديـدة التي نقابلها فـي حياتنا. في عالـم الأدب على سبيل المثال، لو عددنـا أن كل عمل أدبي يظهـر علـى الساحة، هو نتاج ثقافي جديـد، نجد أن حياته تتبع نفس النموذج. وأنه يظل نتاجاً نخبوياً لا يتجاوز محافل المتخصصين، إن لم يجد فيه القارئ المثقف ثقافة عادية بعيـدة عـن التخصص، أدبـاً جذابـاً يمس عقلـه وروحه، يتحـدث بلغة يستطيع أن يفهمهـا، ويعبر عن عوالم تتقاطع مـع عالمه. ولـو نظرنا إلـى صناعة الأزيـاء، سنجد الكثير مـن «الصرعات» التي تنطلـق فجأة بين نجـوم السينما أو لاعبـي الكـرة، وسنجد مثلها ما ينتشر بيـن مجموعات من المراهقيـن، لكنهـا تختفي من الوجود بعـد حياة قصيـرة. بينمـا تنجـح تلـك الأفـكار الجديدة التـي تنبع مـن ثقافة المجتمـع، وتراعـي ذوقه العام، وخصائصــه، وحتى ميوله في الخامات والألوان.

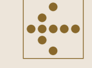
فلكي تنجح الأفكار، فإنها تحتاج إلى أن ينتبه إليها البشر. كما أنهـا تحتاج القادر على رؤية جاذبيتها والتحمس لها. وتحتـاج أيضاً إلى من يقتنع بصفتهـا العملية ويسمح لها بأن تدخل حياته وتكون جزءاً طبيعياً منها. بعبارة أخرى، إنهـا تحتاج إلى بشر يكتبون قصـة حياتها، فيفسحوا لها المجـال لتغير بدورها حياتهـم، ليصبح التاريخ الإنساني فـي إيجـازه وتفصيلـه، تاريخ هـذا التفاعل الحـي بينها وبينهم.

صورة شخصية



واجه في طفولته من المصاعب لولوج عالم فن الخط العربي ما يكفي ليفت من عضد الكثيرين، ليس أقلها رفض قبوله في مدرسة الخط سنتين متتاليتين. ولكن إصرار الفتى أحمد وكفاحه للوصول إلى ما يريده لنفسه في حياته، جعل اسمه أحمد سلطان، واحداً من ألمع الأسماء في فن الخط العربي في يومنا هذا. وها هو يروي لـ عمر مصطفى* سطوراً من سيرته الحافلة بالعطاء.

أحمد سلطان
شغفٌ بالخط لا يُقهر



حديث الأستاذ أحمد سلطان عن الخط العربي، هو حديثٌ شغف. لا يمكنك أبداً أن تستدرجه إلى حديث خالص عن نفسه أستاذاً للخط العربي، دون أن يستدرجك هو إلى الحديث عن جمال هذا الفن، وتاريخه وخصوصيته وقادته عبر العصور.

لن يفوتك أبداً في حديثك معه، ملاحظة هذا الحبور واللمعان في عينيه عند حديثه عن واحد من المئات من تلاميذه على مدار ثلاثين عاماً من تدريس فن الخط العربي، ولن يسعك إلا الإنصات له جيداً عندما يتدفق كنهر في حديثه عن روعة خط الثُّلُث، أو عن الأماكن المجهولة التي يمكنك فيها مشاهدة روائع الخط في القاهرة، أو عن شيخ عزيز من أساتذته.

* كاتب من مصر

قضى الأستاذ أحمد عمره الحافل معلِّماً، لا تشغله قاعات العرض عن حجرات الدراسة، وهو سعيد أيما سعادة بهذا الاختيار، ولا يزال يجد ويجتهد بتواضع طالب علم لحفظ هذا الفن لسنوات ولأجيال أخرى بعيدة، وها هو يحكي حكايته..

نبدأ من عند الشجرة

كنت طفلاً عندما كنت أجلس متأملاً أخي الأكبر، يرحمه الله، وهو يكتب. كان أزهرياً مهتماً بالفنون ومحباً للرسم، وله خط جميل مثل معظم الأزهريين في ذاك الزمن. كنت أراقبه مبهوراً أوقاتاً طويلة وهو يكتب الحروف العربية بالقلم البسط ذي السن المشطوف والحبر الأسود، دون أن أسأله شيئاً أو يعلِّمني هو شيئاً، فقط كنت أشاهد.

ثم بدأت علاقتي العملية بالخط في المدرسة الإعدادية، وكان لهذا سبب طريف جداً؛ إذ أن نسبي يتحدر من قبيلة عربية تسمى قبيلة «الترابين» هاجرت من شمال اليمن إلى منطقة نويبع بخليج العقبة منذ نحو 950 عاماً، ثم نزحت إلى وادي النيل منذ 400 عام. وكان أبي مهتماً جداً بتحفيظي أنا وإخوتي أنسابنا وأسماء جدودنا، حفاظاً على علاقتنا بهذا النسب وهذا الأصل، وكان يسعدني جداً وأنا طفل ذاك الشعور بالامتداد في الزمن.

شغلت بالي وثيقة شجرة العائلة وكيف أن الكثير مما أعلمه قد طرأ عليها دون توثيق. فقررت كتابة شجرة جديدة للعائلة، ولكني اكتشفت أن قبح خطي وضع شجرتي في مهب الريح.

كان أخي الأكبر قد توفاه الله، ولا يوجد حولي من يعلمني الكتابة بخط جميل، ولم أكن أعلم لهذا طريقاً واضحاً، فهداني تفكيري

إلى تعلم الآلة الكاتبة، ولكنني سرعان ما تراجعت بعد اكتشافي مدى صغر حروفها وفقرها مقارنة بتلك الخطوط الجميلة المكتوبة بخط اليد.

على سلم التأهيل

«كان هذا في أوائل الستينيات عندما علمت بوجود مدارس لتعليم الخط، فتقدمت لإحداها ممتحناً، وفشلت فشلاً ذريعاً في اختبار القبول الذي كان يفترض في المتقدمين إليه قدراً من المعرفة بالقواعد. وقد وبخني بشدة المدرس الذي اختبرني، وكان من فئة الخطاطين الحرفيين الذين لم يتلقوا تعليماً إلزامياً ويمتهنون الخط. لم أفهم وقتئذ سبب هذا التوبيخ ولا ذاك الفشل، ولكن ذلك لم يكن كافياً للتخلي عن مشروعي.

في العام التالي، تقدمت إلى الاختبار نفسه، فحظيت بالنتيجة المؤسفة ذاتها مع مزيد من التوبيخ من المدرس نفسه، فلم أيأس رغم إحباطي، وفهمت أنه لكي التحق بالمدرسة أحتاج أولاً إلى تعلم أصول الخط، وهو ما نجحت فيه بعد جهد جهيد على يد خطاط حرفي آخر. وفي العام الثالث تقدمت للاختبار نفسه وكنت أول المقبولين، ونسيت شجرة العائلة إلى اليوم وبدأت رحلتي مع الخط العربي.

خطوط على طريق الأستاذ

كانت دراستي الجامعية في الحقوق، التي لم أمارسها أبداً ولم ألتحق يوماً بنقابة المحامين. إذ دفعتني معاناتي في تعلم الخط العربي على مدى سنوات، إلى تدريس الخط العربي، مجتهداً في تجنيب تلاميذي تلك المعاناة التي تعرضت لها.

وفي السبعينيات عملت مدرساً للخط في عدد من مدارس الخط بالقاهرة، ثم أنشأت مدرسة حكومية للخط العربي سميتها «ابن مقلة» وكانت الأولى من نوعها في مصر التي تحمل اسم أحد أساتذة الخط، عكس باقي المدارس والتي كانت تحمل أسماءً مثل «مدرسة تحسين الخطوط».

وفي أوائل الثمانينيات رُشحت لتدريس الخط العربي بقسم اللغة العربية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وكان أول من شغل تلك الوظيفة قبلي خطاط مصري كبير اسمه سيد إبراهيم، وظل كرسيه بالجامعة الأمريكية شاغراً بعد وفاته سبع سنوات حتى حظيت أنا بشرف الجلوس عليه حتى اليوم.

بدأت في الجامعة الأمريكية في القاهرة مشواراً طويلاً في تدريس الخط العربي لمئات الطلبة من المصريين والعرب والأجانب، ممن شاركني بعضهم بأعماله الخاصة في معارضي القليلة التي أقمتها أستاذاً للخط. هذا إلى جانب أعمالي الفنية كتصميم شعار الجامعة الذي يستخدم إلى اليوم، وتصميم عدد من أغلفة الكتب التي تنشرها الجامعة.

كان أكثر ما يشغلني هو إيصال الخط العربي إلى كل من يحبه، فكان التدريس بالنسبة لي أولوية شخصية واختياراً أعتز به، فقد درَّست كل الأعمار من الأطفال وحتى العجائز، درَّست لرجال ونساء، لعرب وأجانب، واكتشفت أن ما من مانع أبداً لتعليم الخط لأي شخص، طالما توافر لديه حب حقيقي للخط وصبر على التدرب والممارسة. وقد تراكمت لديّ اليوم خبرة طويلة في التدريس ووضع المناهج، أدعو الله أن يساعدني في طباعتها في كتاب يفيد الأساتذة والدارسين معاً.

على جدار المكتبة

ويتحدث الأستاذ أحمد عمَّا يراه أهم أعماله على الإطلاق، فيقول: «عندما بدأ د. ممدوح حمزة، المعماري المصري الكبير، في تنفيذ مبنى مكتبة الإسكندرية منذ بضع سنوات، اكتشف أن تصميم الجدارية الضخمة التي عليها أبجديات من كل العالم يخلو من أية أبجديات عربية، فانزعج الرجل بشدة واتصل بي، وكان لي عظيم الشرف بالمشاركة في هذا العمل الخالد، بتصميم الأبجدية العربية وإضافتها مع أبجديات أخرى غير عربية بحكم اهتمامي وتنوع مصادري. وأعد هذا العمل من أهم ما قمت به طول حياتي المهنية.

بمساعدة ابني الصغير محمد ذي الستة عشر عاماً والذي يسبقني كثيراً في كل ما يتعلق بالكمبيوتر؛ أنشأت موقعاً على الإنترنت سميته «موسوعة الخط العربي»، أنشر عليها كل ما أمتلكه أو أصل إليه من مراجع للخط العربي مما لا يوجد في أي موقع آخر على الإنترنت، وأرد على أسئلة الناس، وأقدم معلومات عن الخطاطين في الوطن العربي وخارجه، وأنشر أعمالاً لأساتذة الخط العربي الكبار، وأحاول تقديم المواهب غير الظاهرة مثل رسَّام مصري يعمل بالإعلانات كتب حوالي 7200 نموذجاً للفظ الجلالة بطرق مختلفة، كذلك أنشر كل ما يتعلق بالخط العربي من أخبار وأحداث وغيرها.

ولم يكن يدور بذهني قبل إنشاء هذا الموقع أن أضع به كل تلك المادة، لا سيما مع حداثة عهدي بتلك التقنية، ولكن الحاجة أم الاختراع».

أحلام لا تنتهي

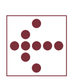
ويختتم الأستاذ حديثه عن أحلامه فيقول: «إنها لا تنتهي، فأنا أحلم مثلاً بهيئة أكاديمية عربية تكون مرجعاً لكن من يريد دراسة الخط العربي أو السؤال عن تطبيقه في مناحي الحياة كافة، بعيداً عن المجهودات الفردية المحدودة، وأن يأخذ الخط العربي مكانة تليق به في المدارس العامة وفي مدارس الخط التي تنقرض وتتدهور منذ سنوات طويلة. أحلم بأن تعود للخطاط مكانته ودوره، وأن يوفقني الله في نشر مجموعة الكتب التي ألفتها مثل كتاب عن خط الثُّلُث الذي أعشقه، وكتاب لمناهج تعليم الخط العربي».



ثلث قرن على رحيل آخر أمراء الشعر

الأخطل الصغير المجدِّد.. لا يزال جديداً

في العام 1968م، توفي الشاعر بشارة الخوري المعروف أكثر باسم الأخطل الصغير، ثاني أمير للشعراء بعد أحمد شوقي. واليوم، وفي غمرة الاتجاهات والمذاهب الشعرية المعاصرة، يفوت الكثيرين الالتفات إلى من مهَّد الطريق أمام ظهورها بأرقى ما فيها، ومن ضمنهم، إن لم يكن على رأسهم الأخطل الصغير. الناقد جهاد فاضل يعيد هنا قراءة مقتطفات من بعض قصائد هذا الشاعر العملاق الغزلية والوطنية مبيناً عدداً من جوانب التجديد في شعره، التي يصعب القول إن اللاحقين تجاوزوها.



لم يبدأ الأخطل الصغير حياته شاعراً كبيراً، ولم يُعترف بكفاءته الشعرية إلا بعد مرحلة مرّة من القرزمة، إلى أن بايعه الشعراء العرب في السنوات الأخيرة من حياته بإمارة الشعر في احتفال كبير أقيم في قصر الأونيسكو في بروت.

ومن طريف ما يُروى عن هذا «الأمير» في بدايته أنه كان عضواً في حلقة الشيخ اسكندر العازار، يختلف إلى مجالسه فيُصغي مع المُصغين إلى نوادره الأدبية والشعرية، ويقرض الشعر معارضاً كبار الشعراء. روي عن أحد أفراد هذه الحلقة أن الشيخ اسكندر العازار كان إذا قيل له: «هو ذا بشارة يقرض الشعر» يجيب: «بشارة صحافي وسليم شاعر، (وهو يعني سليم العازار) فاتركوا بشارة للصحافة يبرز فيها». وكان بشارة آنذاك قد أنشأ مجلة البرق يساعده الشيخ اسكندر العازار، شيخ الحلقة. إلا أن بشارة لم يقنع بالصحافة، بل عكف على النظم وطلع ذات يوم على شيخه ورفاقه بقصيدته الغزلية:

عشتَ فالعب بشعرها يا نسيمُ
واضحكي في خدودها يا كرومُ

فلما استمع إليها الشيخ اسكندر العازار، هتف قائلاً: ما زال بشارة يهذي حتى نطق بالشعر أخيراً ...

عند الحديث عن الأخطل الصغير تتداعى إلى الذهن سمتان بارزتان في شعره، أولاهما أنه شاعر غزلي من الطراز الأول، وثانيتهما أنه شاعر وطني كان لسان العرب والمدافع الأول عن قضاياهم، والمشارك على الدوام، باسم بلده لبنان، في المحافل والمحطات القومية.

ليونة العاطفة في شعره الغزلي

فأما عن شعره الغزلي، فالمُبحر في شعره يعجب لهذا الكلف بالحب والجمال الذي يشيع فيه. غنَّى عواطف قلبه فأطرب وأشجى، وصوَّر اختبارات نفسه في حالتيّ فرحه وأساه، فارتفع بالشعر الغنائي إلى أعلى مستوى. ولعل سر الغنى في شعره هو تلك الحيوية العاطفية الطاغية عليها.

ويمكن للمرء أن يستلَّ من ديوانه الشعري أبياتاً، أو قصائد، في الغزل ليس كمثلها أبيات وقصائد. ويكفي أن نحيل القارئ على بعض ما يغنيه المطرب محمد عبدالوهاب من شعره الغزلي، كقصيدته التي مطلعها:

الهوى والشباب والأمل المنشود
ضاعت جميعها من يديّا

وقصيدته الثانية:

الصبا الجمال ملك يديك
أيُّ تاج أعزّ منَ تاجيكِ

على أننا لسنا إزاء، قصائد غزلية محدودة. فالغزل يبسط نفوذه على شعره كله حتى لنجد تعابير هذا الغزل في شعره الوطني أيضاً، كقوله مثلاً: «قم نقبِّل ثغر الجهاد وجيده»! فالليونة غلبت على شعره كله، وإذا بهذا الشعر بعيد من الجفاف والشدّة. وكان الأخطل في مجالسه يسمِّي هذه السمة في شعره «بالزوم» (العصارة) وهي عبارة عامية لبنانية تفيد الطراوة والنداوة.

كان الشعر قبل الأخطل الصغير في معظمه شعراً جافاً خالياً من الليونة والرقة. كانت الرصانة تحجب العاطفة فيه، فيبدو كأن العاطفة إذا ما لجأ إليها الشاعر حُملت حملاً إليه لفرط رصانته وتجهمه. ويختلف شعر الأخطل عن ذلك. فقد أدرك أن الشعر الحقيقي هو الشعر الذي يمتزج نغمه بمعناه، وشكله بمضمونه، كذلك أدرك أن موسيقى الشعر هي الوحدة بين المعنى والمبنى فجاء شعره يقطر «زوماً»، على حد تعبيره.

وهو يصقل شعره ويُغنيه بكلمات تطابق المعنى تمام المطابقة وتلائمه وتؤثر في قارئه كقوله:

أيها الخافقُ المعذبُ يا قلبي
نزحتَ الدموعَ من مقلتيا

أو:

رَقَدَتْ ترشفُ الكرى مقلتاها
مثلما يرشفُ العطاشُ المياها

أو:

أنت ذوّبت في محاجرها السحر
ورصّعتَ باللآلئ فاها
أنت عسّلتَ ثغرها فقلوب الناس
نحل أكمامها شفتاها

أو:

تعجّب الليلُ منها عندما برزت
تُسلسل النور من عينيه عيناها

ولا نعرف شاعراً مولعاً بالحسن، كلفاً بالجمال، يشيع قلبه في شعره كالأخطل الصغير:

كفاني يا قلبُ ما أحملُ
أفي كل يوم هوى أولُ؟

وفي أبيات قليلة يلخص زمن الحب كله:

تمرّ بي كأنني لم أكن
ثغرَك أو صدرَك أو معصمَكْ

طبيعي لشاعر مثله يغني الحب والجمال أن يجنح مركبه نحو بحر النواسية من جهة ونحو بحر الخيَّامية من جهة أخرى

لـو مـرّ سـيـف بيـنـنـا لـم نكن
نعلم هل أجرى دمي او دمك!

إنه الإعجاز في الإيجاز. معان منتقاة من ينابيع الهوى والجمال، تؤلّف ذخيرة وافرة، بل كنزاً ثميناً يجعله أغنى شعراء الحب ثروة وأرفعهم ذروة وأوفرهم تفنناً. وفي شعره يتيه الشعر دلالاً على الحسن لأن في يديه نشر صيته وبثّ محاسنه، وفي قوافيه مقاصير الخلود يُسكنه إياها منعماً متفضلاً. لنسمعه مفاضلاً بين الشعر والحسن مكللاً جبين الشعر بغار السبق إذ يقول:

ما الحسن لولا الشعر إلا زهرة
يلهو بها في لحظتين النظرُ
لكنها إن أدركتها رقةٌ
من شاعر، أو دمعة تنحدرُ
سالت دماء الخلد في أوراقها
ونام تحت قدميها القمرُ

تجاوز الوصف إلى الحركة

على أن الطرافة بذاتها ليست كافية لإنارة السمات المميزة لهذا الغزل. فمن مميزاته كذلك أنه ليس غزلاً وصفياً تصويرياً في الغالب، بل يغلب فيه التحول إلى حركة وجدانية تتعمق الحسّ الجمالي في الداخل. وهذا التحول يجعل من الوصف الخارجي ظاهرة حركية تشارك مشاركة أساسية في التعبير عن امتلاء الوجدان بنبضات الشاعر الجمالية. يجد الحب والجمال وحدتهما الكاملة في شعر الأخطل الصغير. فلنسمعه يقول:

إيه ريحانة الرياحين فيضي
مرحاً، واملأي الجوانح وجداً
امسحي جبهة الظلام تفض نوراً
ومرّي على الصخور فتندى

فهل يعني مثل هذا التصور للجمال غير الشعور الداخلي بالاندهاش من روعته؟ وماذا يعني مثل هذا الوصف لصوت مطرب:

يا غابة الصوت اللهيف كأنه
تحت الظلامَ أشعةُ تتكلم!
ثملت به الأزهار وهي أجِنّة
وتشوّفت، فانشقّ عنها البرعمُ

إنه ليس مجرد وصف، بل دهشة وجدانية أمام «غابة» من ينابيع النغم تتدفق على مسمع الشاعر، فتنسكب في أوصاله ارتعاشاً كانسكاب الشعاع المنعش، حتى يتصور هذا النغم يفعل فعل الشمس بالزهرة: تدركها في البرعم جنيناً، فتتفتح زهرة كاملة من أثر الشعاع. والشاعر هنا لا يصف الصوت نفسه بقدر ما يصف أثر الصوت في وجدانه. وكلمتا «الغابة» و«اللهيف» في هذه الصورة لا تعنيان دلالتهما الحرفية، بل دلالتهما في تصور الشاعر الخاص!

ونستحضر هنا أبياتاً من قصيدة الأخطل: عُمر ونُعم. فقد أعاد إلى زماننا صورة من ابن أبي ربيعة في رائيته الطريفة، وجلا منها مشاهد غزلية بطرافة جديدة هي طرافة الأخطل الصغير بخصائصها:

أخاكَ يا شعر فهذا عمرُ
وهذه نعمٌ وتلك الذكرُ
لوحان من فجر الصبا ووروده
غذاهما قلب وروّى محجرُ
فرخان في وكر تلاقى جانحٌ
وجانحٌ ومنقرٌ ومنقرُ

ومن الطبيعي لشاعر مثله يغنّي الحب والجمال مثل هذا الحب أن يجنح مركبه نحو بحر النواسية من جهة، ونحو بحر الخيَّامية من جهة أخرى. هذا إن كان هناك فرق يُذكر بين البحرين، أو بين البحور الثلاثة معاً، وآخرها بحر الحب الذي ينصرف إليه المرء فلا يستفيق من لحظته الراهنة. وقد أخذ الأخطل سواء في سيرته الشخصية، أو في شعره، بقسط وافر من هذه الحياة المفعمة بالحب والوجد، ودعا إليها كما دعا من قبل الحسن بن هاني وعمر الخيام. فلنسمعه يقول:

لستَ، مهما عُمِّرتَ، غير جناح
حط في الروض برهة ثم طارا

ممهداً الطريق إلى المجددين

وللأخطل الصغير مزية تعلو على أية مزية أخرى، هي أنه لم يستسلم للمعاني التقليدية التي كانت سائدة في الشعر العربي في زمانه (النصف الأول من القرن العشرين)، بل تجاوزها إلى ما كان يمور في الحياة الجديدة في زمانه. وقد لا نغالي إذا زعمنا أن شعره اللدن والسلس والمائي والطريف هو الذي مهَّد لشعر شاعر من طينته هو نزار قباني. فلولا القفزة الهائلة في التعبير عن الذات ومواجعها المستجدة وانعكاس الراهن عليها، التي قام بها الأخطل الصغير، لما أمكن لشعراء الحداثة الذين أتوا بعده أن يقولوا ما قالوه.

والواقع أن الأخطل الصغير، كما وصفه أحد الأدباء الذين عرفوه عن قرب، كان الجسر الذي مهَّد لكل جديد في الشعر حصل بعده. فلولاه لبقيت مدارس النظم المشدودة إلى المعاني القديمة، والأطلال الدارسة، وسطحية الغزل، وانتحار المعاني على أيدي جلادي التقليد، وموت الأخيلة في كهوف الرثاثة.

ولا شك في أن لمهنة الصحافة التي انصرف إليها الأخطل باكراً أثراً في اقتراب لغته من الحياة ومن الناس. فالصحافة بما تتطلبه من مرونة و«طبيعة» في التعبير، هي التي قادته نحو هذه اللغة السلسة التي تشيع في شعره. وقد أشاد الكثيرون بخفة روحه وطرافته وإبداعه في اصطياد المعاني. وحسناً فعل بترك النظريات الشعرية لمن عاصره، أو أتى بعده، واستسلم لقريحته مبتعداً عن تلك النظريات التي كثيراً ما أفسدت الشاعر وشوَّهت شاعريته.

قد يأتي غربال الزمن على الكثير من شعر الأخطل، ولكنه لن يأتي على شعر له في الحب والجمال هو من أروع ما كتبه شعراء الغزل العرب على مدار القرن العشرين. في هذا الشعر نعثر على جمالات وحلاوات كثيرة أشرنا إلى بعضها فيما تقدم. وفي هذا الشعر قلب يغني للجمال بصدق وعفوية. ولم يخطئ المطرب الكبير محمد عبدالوهاب عندما سئل مرة كيف لحَّن «الهوى والشباب» و«الصبا والجمال»، و«جفنه علَّم الغزل»، فأجاب: «أنا لم ألحِّن هذه القصائد لأنها جاءتني ملحنة من الأخطل الصغير»!

ولم يبالغ عندما قال في قصيدته له:

أنا في شمال الحبِ قلبٌ خافقٌ
وعلى يمين الحق طيرٌ شادِ

غنّيتُ للشرق الجريح وفي يدي
ما في سماءِ الشرق من أمجادِ

عروبة شعره تتجاوز اللغة

والواقع أن شعر الأخطل الصغير يتوزع على الغزل والقصائد الوطنية. فهو شاعر لبناني، كما هو شاعر ذو نزعة عروبية. وهذه النزعة العروبية جديرة بالتنويه لأن شعراء كثيرين في زمانه كتبوا الشعر بالفرنسية، وعندما كتبوه بالعربية لم يكن أفقهم أفقاً عربياً. أما الأخطل فقد لقب نفسه بهذا اللقب تيمناً بالأخطل الشاعر النصراني الأموي الذي كانت تُفتح له أبواب الخلافة، ويتدلل على الخلفاء الأمويين ويملأ قصورهم شعراً ومرحاً.

وفي كل مواقفه لم يطأطئ الأخطل الصغير رأسه لأحد من أجل مصلحة خاصة، بل ظلّ مرفوع الرأس، يذكِّر وطنه بما قدّم له من خدمات، وبسيرته النضالية من أجل عزته وكرامته:

لبنانُ يا وَلَهَ البيانِ أذاكرٌ
أم لستَ تذكرُ نجدتي وكفاحي
قبَّلتُ باسمك كل جرحٍ سائلٍ
وركزتُ بندكَ عالياً في الساح
أنا إن حُجبت فليس ذاك بضائري
وعلى الخواطر غدوتي ورواحي

«الأخطل الصغير أمير الشعراء».. طابع بريد تذكاري



الأخطل الصغير رثى الملك فيصل الأول في بغداد عام 1933م بقصيدته العصماء «مصرع النسر» فأغلقت سلطات الانتداب جريدته «البرق» وألغت امتيازها نهائياً

في رثاء شوقي حُمل مريضاً إلى احتفال التأبين ليقول فيه: هذا هوى الشرق هذا ضوء ناظره

وله في لبنان قصائد كثيرة، منها هذه الأبيات:

لبنان كم للحسن فيك قصيدة
نثرت مباسمها عليها الأنجمُ
كيف التفتّ: فجدولٌ متأوهٌ
تحت الغصون، وربوة تتبسمُ
وطن الجميع! على خدود رياضه
تختال فاطمة، وتَنعم مريمُ!

وطن الجميع: هكذا عرفه أو أراده الأخطل. فهوية الشاعر هي هوية عربية بالدرجة الأولى. وقد توضحت هذه الهوية على أفضل ما يكون في قصائده التي كتبها في مناسبات قومية عديدة. كان الأخطل يمثل لبنان عادة في السوانح الوطنية في البلاد العربية. ومن أفضل نفثاته القومية ما نظمه في القضية الفلسطينية. ومن أقواله فيها:

سائل العلياءَ عنا والزمانا
هل خفرنا ذمة مذ عرفانا
المُروآتُ التي عاشت بنا
لم تزل تجري سعيداً في دمانا
ضجتِ الصحراءُ تشكو عريها
فكسوناها زئيراً ودخانا
مذ سقيناها العلى من دمنا
أيقنت أن معدّا قد نمانا
ان جرحاً سال من جبهتها
لثمته بخشوع شفتانا
قم إلى الأبطال نلمس جرحهم
لمسة تسبح في الطيب يدانا

وله في الشام قصائد كثيرة:

سل عن قديم هواي هذا الوادي
هل كان يخفق فيه غير فؤادي
بردى هل الخلد الذي وعدوا به
إلاّك بين شوادن وشوادي
قالوا تحبّ الشام قلت جوانحي
مقصوصةٌ فيها، وقلت فؤادي!

ومن أجمل قصائده قصيدته في رثاء شوقي في القاهرة. فيوم التأبين، أو قبله، أصيب الأخطل بوعكة صحية كادت تحول بينه وبين إلقاء قصيدته. تهافت على غرفته في الفندق كبار أبناء الجالية اللبنانية في القاهرة (سنة 1932م) يطلبون منه أن يذهب إلى الاحتفال. أحْضَروا الدواء له، بعضهم ألبسه ثيابه، وحملوه حملاً إلى حيث يقام اللقاء والشفاه تبتهل كي تسمح له الحمّى بالوقوف على المنبر وإلقاء قصيدته في أمير الشعراء شوقي الذي كان بينهما حب متبادل:

قال الملائك من هذا فقيل لهم
هذا هوى الشرق هذا ضوء ناظرهِ
هذا الذي نظم الأرواح فانتظمت
عقداً من الحب سلك من خواطرهِ
هذا الذي رفع الأهرام من أدب
وكان في تاجه أغلى جواهرهِ
هذا الذي لمس الآلام فابتسمت
جراحها ثم ذابت في محاجرهِ
كم في ثغور العذارى من بوارقه
وفي جفون اليتامى من مواطرهِ

وينهي الأخطل قصيدته في شوقي بهذا البيت:

سألتنيه رثاءً خُذهُ من كبدي
لا يُؤخذ الشيء إلا من مصادره!

وكان شوقي قد طلب من الأخطل مرة أن يرثيه إثر حادثة اصطدام تعرض لها.

ويذهب الأخطل الصغير إلى بغداد ليرثي شاعرها جميل صدقي الزهاوي بقصيدة من عيون شعره، منها هذه الأبيات:

بغداد ما حمل السرى مني
سوى شبح مريبِ
جفلت له الصحراء والتفت
الكثيب إلى الكثيبِ
وتنصتت زمُر الجنادب
من فويهات الثقوبِ
يتساءلون وقد رأوا
قيس الملوح في شحوبي
والتمتمات على الشفاه
مخضباتٌ بالنسيبِ
يتساءلون عن الفتى العربي
في الزي الغريبِ

هو والنقَّاد وطائفة الحسَّاد

لم يخْلُ عصر الأخطل من نقاد، أو حسّاد، يأخذون على شعره مآخذ شتى. في هذه القصيدة التي رثى بها الزهاوي، قالوا: من أين جاء بشاره الخوري، أي الأخطل الصغير، بالجنادب إلى الصحراء؟ وعندما نقلوا للأخطل هذا المأخذ، قال: حسبنا الله ونعم الوكيل! لئن خلت الصحراء من جنادب، فأين نجدها؟ أتريدونني أن أنزل إلى مستواهم، وقد قلت فيهم مرة:

وربّ أخ رأى فرحاً بذمّي
فقلت: رضيتُ ذمك لو شفاكا
أتطمع ان تحلّق للثريا
فتطفئها! عدت إذن حجاكا!



يتوسط عدداً من أصدقائه ويبدو صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله الفيصل



الشاعر الكبير مع عقيلته وأنجاله



العملاقان ذراعاً بذراع.. صورة نادرة للموسيقار محمد عبدالوهاب مع الأخطل الصغير



الشاعران الكبيران الأخطل الصغير وأمين نخلة



ثلاثة من أصدقاء الأخطل الصغير، من اليمين: الأديب والخطيب فليكس فارس، الأديب الرحالة المؤرخ أمين الريحاني، شاعر العراق الكبير معروف الرصافي

غنَّى من شعره محمد عبدالوهاب وأسمهان وفريد الأطرش وفيروز. وقال فيه عبدالوهاب: إن قصائده تأتيني ملحَّنة

والواقـع أن الأخطـل ابتلـي فـي زمانـه بطائفة مـن النقاد والشعـراء الذيـن أخـذوا عليه مآخـذ كثيـرة كالسرقة من الشعـراء الفرنسييـن، وما إلى ذلك مـن المآخذ. وقد روى صلاح لبكي في كتابه «لبنـان الشاعر» أن الأخطل الصغير أنشـد مرة في منتـدى «الويست هـول» بالجامعة الأمريكية في بيروت قصيدته «عـروة وعفراء»، وهي قصيدة تقليدية موضوعهـا مأخوذ من تراث العرب، فلما انتهى من الإنشاد بيـن تصفيق الجمهـور وهتافه، صعد المتكلـم الثاني (بعد الأخطل) وكان الشاعر سعيد عقل، (وكان لا يزال في ميعة الصبا ويخالطه الغـرور)، وراح ينثر نظرياته حول الشعر. وممـا قالـه، وهو يغمز من قنـاة الأخطل: «أنـا لا أقيم وزناً لأديـب أو شاعر قضى عمراً فـي الأدب والشعر ولم يصدر كتاباً يحمل اسمه، كما أشفق على شاعر يغسل البحر قدميه، ويكلل صنين رأسه، ثم ينتزع ذاته من هذه الجمالات رائحاً إلى الصحراء ليدبج قصيدة»!

لـم يخفَ مقصد سعيد عقل على المستمعين، فما إن انتهى حتى راحوا يهتفون: «نريد بشارة! نريد بشارة!»، وما انفكوا حتـى صعد بشارة المنبر ليقول: لستُ بزجَّال لأساجل، إنما تذكـرتُ موقفي من فتيان جاؤوا إليَّ، فلما اكتمل ريشهم، أو ظنّوه، راحوا يطارحونني العداء، فقلت فيهم:

ومعشرٍ حاولوا هدمي ولو ذكروا
لكان أكثر ما يبنون من أدبي
تركتُهم في جحيم من وساوسهم
ورحتُ أسحبُ أذيالي على السحبِ

وتمرّ الأيام ويظهر سعيد عقل بعد ذلك في مهرجان تكريم الأخطـل الصغير قبـل رحيله بسنوات قليلـة، ويستعيد تلك الواقعـة فـي منتدى «الويسـت هول» ليفسِّرهـا على غير ما جـاءت، وهو أنه لم يكن يقصـد الإساءة إلى الأخطل. وكان الأخطل قد ذكر مرة عن خصومه، أو حسّاده:

كلما أطبق الغبار عليهم
حشرجوا تحته وماتوا اختناقاً

كما كان يقول: «إنهم أصدقـاء، إنهم شعراء لبنان وأدباؤه، وما الأعمال إلا بالنيات»!
إنهـا أنفة على لين، وحنان على بذخ، وروح للرضوى عندها أكثـر من باب، وأبعد مـن مزار. هذا هـو الأخطل الصغير الإنسان.

شاعر مناسبات وأغنيات

أخـذ الكثيـرون علـى الأخطـل أنـه كان شاعـر مناسبات. والواقـع أن «المناسبة» يومئذ كانت أفضـل وسيلة إعلامية بيـد الشاعر ليدلي برأيه فـي قضايا عامة كثيرة مطروحة. كان شاعـر المناسبـة ينطلق من هذه المناسبـة، ليستغلّها وليدلـي برأيـه فـي المسائـل العامـة. وللأخطـل الصغير قصائد اجتماعية كثيرة منها:

يا أمةً غدت الذئاب تسوسُها
غرقت سفينتها فأين رئيسها
غرقت فليس هناك غير حطائم
يبكي مؤبنها، ويضحك سوسُها
تتمرغ الشهوات في حرماتها
وتعيث في عظماتها وتدوسُها

ويبـرز هذا الحسّ الاجتماعي عنـد الشاعر فـي قصيدته «الجابي» وهو موظف الدولة الذي يحضر إلى البيوت لجباية الضرائب والرسوم:

من الناعب قبل الفجرِ
من هذا على البابِ
أعيذ القبح من قبح
بأظفار وأنيابِ
أقَبْل الشمس في الآفاق
والعصفور في الغابِ
وما زار الكرى جفني
ولم تعلقه أهدابي
ولا غذيت أطفالي
سوى همي وأوصابي

وعـرف شعـر الأخطـل الصغير طريقـه إلى الغنـاء، وكان من بيـن من غنَّى من شعـره محمد عبدالوهـاب وأسمهان وفريـد الأطرش وفيروز. وقـد ربطته صلـة خاصة بمحمد عبدالوهاب الذي تعرف إليه في القصر الجمهوري بعاليه، وكان بصحبـه شوقـي، عندمـا أبلغـه أحـد الحاضرين أن شاعـراً يضمـه الحفل اسمـه الأخطل الصغيـر له قصيدة جميلة مطلعهـا: الهوى والشباب والأمـل المنشود. وعندما سمـع عبدالوهاب القصيـدة رغب بالتعرف إلـى الشاعر. ونشـأت بينهما بعد ذلك صداقة قوية أثمرت خمس قصائد غناهـا عبدالوهاب لـه، إحداها وئدت فـي مهدها ولم تُذع سـوى مرة واحدة من إذاعة القاهرة وكانت في تحية الملك فاروق.

وقد قرأ عبدالوهاب مرة قصيـدة الأخطل: «اسقنيها بأبي أنـت وأمـي»، فأبرق إلـى الأخطل طالبـاً منـه أن يغنيها.. ويبـدو أن أسمهان سمعت بهذا الخبـر، فاستأذنت الأخطل أن تغنيهـا.. حـار الأخطل، ولكـن الذي حسـم الأمر عنده هو سحـر أسمهـان ونفوذها فـي القلوب.. وعندمـا عاتبه عبدالوهـاب بعـد ذلك، قال لـه: لقد تأخـرت برقيتكم في الوصـول فلم أعـرف برغبتكم في غنـاء القصيدة. وكانت أسمهـان قد طلبت القصيدة مني فلـم أمانع.. ولم يصدِّق عبدالوهاب ذلك بالطبع.



ومن طريف ما ذكره الأخطل مرة: سامح الله محمد عبدالوهاب فقد أجبرني أن أصبح زجالاً مصرياً.. فقد كتبتُ له، وبناء على طلبه: «يا ورد مين يشتريك». كنتُ وعبدالوهاب ذات صباح في حديقة الورد قرب منزلي. وبينما نحن نرشف القهوة، نظرتُ إلى وردة وشَّاها الندى بأعراق ونقطها باللؤلؤ. وكان عبدالوهاب قد طلب مني قصيدة لأحد أفلامه، فقلت:

يا ورد عاش الورد
طاب الذي شمّك
يا برعماً في نهر
شقّ الهوى كمّك

أعجب عبدالوهاب بالمطلع ولكنه رغب إلى الأخطل أن يجعل القصيدة شعراً شعبياً، فكانت «يا ورد مين يشتريك»، وهي تجربة فريدة لأن القصيدة مزيج من الفصحى والعامية المصرية، ولم تتكرر التجربة فيها بعد.

على أن الزمن يفعل فعله في الشعراء في سنواتهم الأخيرة. انزوى الأخطل في منزله في تلك المرحلة الصعبة من العمر. بات عوداً بلا وتر. هيكلاً نحيلاً لولا بريق عينيه لظنه زائره شبحاً من الأشباح. يزوره أصحابه فلا يتعرف إليهم إلا بعد مذاكرة، فإذا خطر لأحدهم أن يروي بيتاً من إحدى قصائده، انتفض فجأة واستعاد ذاكرته ليسردها دون تلعثم، فكأنه أسطوانة الحاكي تخالها قطعة من جماد، فما إن تطلق الإبرة على صفحتها حتى تتحول إلى كائن ناطق.

لقد خبا رسول الغزل والكلمة الأنيقة كما تخبو الشمعة وقد أذاب اللهب جسمها. على أن الأخطل الصغير يبقى في الذاكرة الشعرية العربية شاعراً كبيراً. هو تراث لبناني له حرمة الأرز وروعة هياكل بعلبك، كما هو تراث عربي يضم إلى ذخائر الفصحى مفاخر العرب.

وكان آخر ما كتبه هو هذه الأبيات الثلاثة التي ألقاها في احتفال تكريمه عندما جاءت إلى لبنان نُخبة الشعراء العرب ليبايعوه بإمارة الشعر، فكان كل ما جادت به قريحته هذه الأبيات الثلاثة:

أيومَ أصبحتُ لا شمسي ولا قمري
من ذا يغنّي على عودٍ بلا وترِ
ما للقوافي إذا جاذبتها نفرت
رعت شبابي وخانتني على كبري
كأنها ما ارتوت من مدمعي ودمي
ولا غذتها ليالي الوجد والسهرِ!

ديوان الأمس ديوان اليوم

عبدالرحمن الحبيب*

أقسّم جسمي في جسومٍ كثيرةٍ

إنّي امرؤٌ عافي إنائيَ شِركةٌ ... وأنت امرؤٌ عافي إنائك واحدُ

أتهزأُ منّي أن سَمِنتَ وأن ترى ... بوجهيَ شحوبَ الحقِّ والحقُّ جاهدُ

أُقسّمُ جسمي في جسومٍ كثيرةٍ ... وأحسو قراحَ الماءِ والماءُ باردُ

مع رشاقةِ الإيقاعِ وطلاوةِ الحروفِ يصوغُ عروةُ بن الوردِ رؤيةً جماليةً متعاليةً على حاجتهِ الغريزية.. رؤية شاعرٍ تدخلُ في اللاشعور وتمتشجُ مع الحلم حتى تراه عياناً، ليصبحَ الخيالُ حقيقةً، والحقيقةُ قصيدةً، والقصيدةُ روحاً.. وأرواحُ الصعاليك متمردةٌ تسمو على موجوداتهم.. الأرواحُ باقيةٌ والموجوداتُ عابرة.. وهنا عروةُ يبتدئُ بقوّته يشاركُ به الناس، ويحملُ الحقَ الذي يضني جسدَهُ وما تظهر من قسمات الشحوبِ في وجهه.. وجهُهُ شاحبٌ وفي قلبهِ أغنيةٌ تذوبُ في جسده الناحلِ، فيذوبُ الجسدُ جوداً في حاجةِ الآخرين.. فمَن ذا الذي يفجرُ المعانيَ بشعره كي يتوزعَ جسمَهُ في جسوم كثيرة؟ إنها أسطورةُ القصيدة.. إنه الشاعرُ الساحر.. وإنَّ من البيانِ لسحراً! لذا لُقبَ شاعرنا بعروةِ الصعاليك.. والصعاليكُ مُشاعةٌ ممتلكاتهم، فردانيةٌ أرواحهم، مقدسةٌ حقوقهم.. والحق عند عروة، روح تتوهج بالحريةِ حياة او موتاً، يقول:

يَقولُ: الحقُّ مطلبُهُ جميلُ ... وقدْ طلبوا إليكَ، فلمْ يُقيتوا

فقلتُ لهُ: ألا احيَ وأنت حُرٌّ ... ستَشبعُ في حياتِكَ أو تموتُ

إذا ما فاتني لمْ أستقلْهُ ... حياتيَ والملائمُ لا تفوتُ

فالحقُ إذا فاتكَ فعله لن تستطيعَ ردّه، ولكن الملامةَ ستصيبُك، وتكون ذليلاً! هذا الفهم الوردي العاشق لفضاء الحرية وللناس هو ما دعى عبدُ الملك بن مروان في مقولته الشهيرة: «من زعمَ أن حاتماً أسمح الناس، فقد ظلمَ عروةَ!»، وحمله على أن يقول: «ما يسرني أن أحداً من العربِ ممن ولدني لم يلدني، إلا عروة بن الورد لقوله إني امرؤٌ عافي إنائيَ شركةٌ، وأنت امرؤٌ عافي إنائك واحدُ».. ولا ينتهي الحقُ لَدى عروة إلا ويكون الموتُ أفضل:

دعيني أطوِّفُ في البلادِ لعلّني ... أفيدُ غنىً فيهِ لذي الحقِ محملُ

أليس عظيماً أنْ تُلمّ ملمّةٌ ... وليس علينا في الحقوقِ معولُ

فإنْ نحنُ لمْ نملكْ دفاعاً بحادثٍ ... تُلمُّ بهِ الأيّامُ فالموتُ أجملُ

هذا ما جعلَ قومُ عروة - بني عبس - يأتمونَ بشعرِه، رغم نبذهم للصعاليك.. فالشاعرُ هنا نبضُ موسيقيٍ للمشاعر الواعية ولاعبٌ أنيقٌ للمشاعر غير الواعية.. وليس ببعيد عن براعة هذا الشاعر شاعرٌ صعلوكيٌ آخر، فاقَ بإحدى قصائده الآفاقَ العربيةَ، فسُمِّيتْ لاميةُ العرب! التي قيل إن عمرَ بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: «علموا أولادكم لامية العرب فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق».. إنه الشنفرى الذي تناولَ جمالَ الحق كمسألة روحية وليست جسدية، ليعلنَ ثورةَ الجسدِ والعاطفة، حتّى يحيلَ موتَهُ نقيضاً للموتِ الجسديِ ورديفاً لحياةِ الروحِ الحرة:

أُديمُ مِطالَ الجوعِ حتّى أُميتهُ ... وأضربُ عنهُ الذِّكرَ صفحاً فأذهلُ

وأستفُّ تُربَ الأرضِ كي لا يرى لهُ ... عليّ من الطَّولِ امرؤٌ متطوِّلُ

* شاعر وكاتب سعودي

وأحسو قراح الماء والماء بارد

ولولا اجتناب الذأم لم يبق مشرب ... يعاش به إلا لديّ ومأكلُ
ولكنّ نفساً حرّةً لا تقيم بي ... على الضيم إلا ريثما أتحوّلُ
وأطوي على الخمص الحوايا كما انطوت ... خيوطةُ ماريّ تُغارُ وتُفتَلُ
وأغدو على القوت الزهيد كما غدا ... أزلُّ تهاداه التنائفُ أطحلُ

من أين لهذا الشاعرِ أن يديمَ مطالَ الجوعِ حتى يميتَهُ بهذه الطريقةِ الجماليةِ الشرسة؟ وكيف يستفُّ التراب ولديه لو أراد كل تلك المشاربِ والمآكل؟ كيف استطاعَ أنْ يحرثَ في مشاعره كي يزرعَ في أرض يبابه هذا التحديَ العاقلَ المجنون؟ إنها الرؤيا التي ترى ما لا يُرى! رؤيا في اللاشعور، فالشعورُ يموتُ مع نهايات الجوع.. واللاشعورُ يحيى في ضنك حدود النهايات.. واللاوعيُ هو الوعيُ الطبيعيُ الحاد.. الوعيُ النقيُّ بلا نظام مصطنع.. إنها العلاقةُ الروحيةُ مع الأشياء، فليست العلاقةُ مع الحاجةِ الجسديةِ مجردَ إشباعها في صراع البقاء، بل في نبلها وقدرتِها على التمردِ المتسامي.. وليس مدارُ الصراعِ هنا هو العقلانيةَ بل الوجدانية عبر شموخِها المطلق الذي يتحدى الجوع، بل ويتحدى الموت.. وإذا كان عروةُ يتحررُ من سطوة الرغبة بالتملُّك عبرَ المشاركة، فإن الشنفرى يُقدمُ الآخرينَ على الزاد رغم أنه أبسلهم في الحصولِ عليه:

وكلٌّ أبيٌّ باسلٌ غير أنني ... إذا عرضت أولى الطرائدِ أبسلُ
وإن مُدّت الأيدي إلى الزّادِ لم أكن ... بأعجلِهم إذ أجشَعُ القومِ أعجلُ
وما ذاك إلا بسطةٌ عن تفضلٍ ... عليهم وكان الأفضلَ المتفضلُ

هنا يصلُ الشنفرى إلى المبررِ الأخلاقي: «بسطة عن تفضل». سعةُ النفسِ سماحةً وترفعاً.. فيغدو الحسُّ الجسديُّ شكلاً لجوهر نفسٍ حرَّةٍ، ويغدو الموتُ الجسديُّ غير ذي بالٍ عنده، فهو القائلُ:

إذا ما أتتني ميتتي لم أبالها ... ولم تذرِ خالاتي الدموعَ وعمّتي
وإني لحلوٌ إن أريدتْ حلاوتي ... ومرٌّ إذا نفس العزوفِ استمرت
وأبيّ لما آبي سريعٌ مباءتي ... إلى كل نفسٍ تنتحي في مسرّتي

حتى عندما أسَرَهُ أعداؤه وطلبوا منه أن يختارَ قبرَهُ، قال لهم بكل إباءٍ: ارموني للضبع.. أم عامر:

لا تقبروني إن قبري محرّمٌ ... عليكم ولكن أبشري أمّ عامرِ
إذا احتملوا رأسي وفي الرأس أكثري ... وغودرَ عند الملتقى ثمّ سائري
هنالك لا أرجو حياةً تسرّني ... سجيس الليالي مُبسلاً بالجرائرِ

في الرأسِ أكثري؟ نعم، لمن يرى بذهنهِ لا بعينيه فقط؛ وإن كان الشنفرى لا يعدم رؤيةَ الجمالِ الحسيِّ مع الروحي في محبوبته:

بعينيَّ ما أمسَتْ فباتَتْ فأصبحتْ ... فقضتْ أموراً فاستقلّتْ فولّتِ
فدقّتْ وجلّتْ واسبكرّتْ وأكملتْ ... فلو جُنّ إنسانٌ من الحسنِ جنّتِ

اكتمالُ الحسنِ ضربٌ من المستحيل، والمستحيل في الشعر متعة، واكتمالُ الشعرِ ضربٌ من العبث، فلن تكتمل رحلة الشعراء حتى تتحد القصيدة بالميلاد، والميلاد بداية.. والقصيدة هي البداية وهي النهاية..

حكّاءة العينين

أحمد بخيت*

قصيراتٌ ليالي القرب
قاسياتٌ هي العتمات
وقفتُ أمام باب الفجر
لم أتجاوز
العتبات
وضيّعت النجوم العشر
يا نجماتُ .. يا نجمات

أنا في البيتِ والجدرانُ
من غير الأحبةِ
سجنٌ ،
يشيخُ البابُ
والدرج اليتيم
- بلا خطاكِ -
يئن .
أحتى هذه الأخشاب
تحزن مثلنا ، ونحن ؟

أريكتنا التي سكرت
بضحكتنا معًا
تبكي
ولا تغفو معي
إلا إذا حدثتها
عنك
فتحضنني
لعلّ على قميصي
شعرةً
منكِ .

وثوبكِ
كم بكى
والثوب حين يحبُّ
لا يكذبْ
تشبّث بي
قُبيل البُعدِ
كيف، تطيق، أن تذهب ؟
إذا انكسرتْ
فلا مَلَكٌ
سيهبط
ذلك الكوكبْ

أُحبكِ
تنبهتْ الأيامُ
في عيني،
وتتضحينْ
وتقتربينَ ..

تبتعدينَ
تبتعدينَ
تقتربينْ
فيا حكّاءة العينين
بعدي
ما الذي تخبئين ؟

مقاطع من ديوان الليالي الأربع. صادر عن دار «اكتب» للنشر عام 2007م.

* الشاعر: أحمد بخيت. شاعر مصري. عضو المجلس الأعلى للثقافة. صدرت له عدة دواوين، ترجم بعضها للإنجليزية والفرنسية. حصل على عدد من الجوائز في مشواره الشعري، منها جائزة الدولة التشجيعية عام 2002م، وجائزة البابطين للإبداع الشعري عام 2005م.

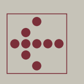
«الحارس في حقل الشوفان»

الفتى المحبط يقرأ زيف العالم

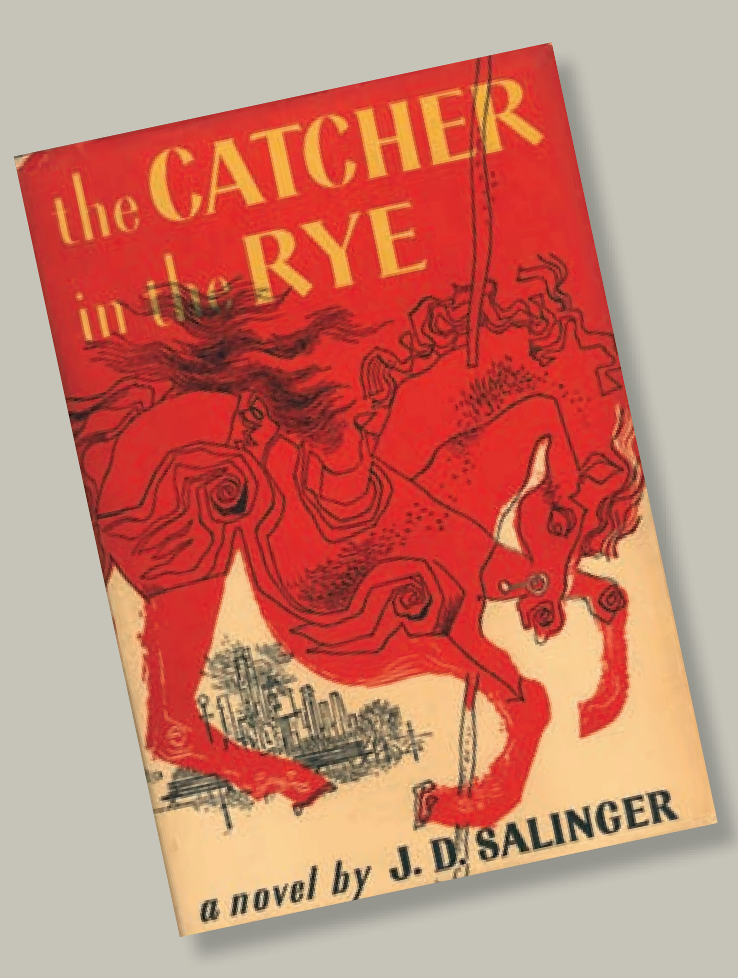


لا تزال رواية «الحارس في حقل الشوفان» للروائي الأمريكي جيروم سالنجر، بعد خمسة عقود ونيف على صدور طبعتها الأولى، تلقى الرواج نفسه الذي صادفته في سنواتها الأولى: ربع مليون نسخة سنوياً. ولمناسبة قيام «دار المدى» أخيراً بإعادة نشر الترجمة العربية التي وضعها الروائي الأردني غالب هلسا لهذه الرواية قبل ثلاثين عاماً، يعرض لنا الناقد سعود عبدالعزيز العمر* قراءته لهذا العمل الأدبي المميَّز، وما سيق تجاهه من اتهام وتقدير وتقييم ومنع.

* كاتب من السعودية



عندما اتجه الشاب جون هينكلي، نحو عضو فرقة البيتلز جون لينون، وأطلق عليه خمس رصاصات من الخلف، كان حينئذ يحمل في يده الثانية نسخة من رواية «الحارس في حقل الشوفان»، وعندما خرَّ لينون صريعاً، جلس الشاب، في مسرح الجريمة، يعيد قراءة الرواية في انتظار الشرطة، ولاحقاً أثناء محاكمته، كان يرفع الرواية ويقول: «هذه هي حجّتي». وبعد عام واحد فقط، حاول شاب آخر أن يغتال الرئيس الأمريكي رونالد ريغان، وقد وجد في الغرفة التي كان يسكنها نسخة من رواية «الحارس في حقل الشوفان».



«الحارس في حقل الشوفان» عنوان وردي حالم لرواية غاضبة وثائرة على كل الزيف والخداع الذي يختلقه ويعيشه ويتنفسه البشر. وقد صنَّفت مجلة «تايم» هذه الرواية واحدة من أهم مئة رواية صدرت بالإنجليزية في القرن الماضي. وعلى الرغم من أنها صدرت في عام 1951م إلا أنها لا تزال، حتى الآن، تبيع كل سنة ما يقارب ربع مليون نسخة حول العالم، وقد تجاوز عدد النسخ المبيعة منها حتى الآن 65 مليون نسخة، بل إنها بعد شهرين فقط من صدورها أعيدت طباعتها ثماني مرات.

السرد والحوار طبيعيان وعفويان وتلقائيان إلى درجة تجعل القارئ يرى العالم بعيني هذا المراهق على تلعثمه واضطرابه وسخريته وتشتته وبذاءته

تصنَّف هذه الرواية في صنف «الرواية التكوينية» (Bildungsroman)، أي الرواية التي ينتقل فيها البطل من حالة الضياع والفوضى إلى حالة الاستقرار والنضج.

تبدأ أحداث هذه الرواية في أواخر عام 1950م، حين كان الشاب الصغير هولدن كولفيلد، ذو الستة عشر ربيعاً، يقف فوق تل صغير، في اجرستاون في ولاية بنسلفانيا، كان ذاك قبل إجازة رأس السنة بأيام قليلة، وكان الفصل الدراسي في نهايته، لكنه كان قد تلقى إشعاراً يفيد طرده من المدرسة نظراً لرسوبه في أربع مواد من أصل الخمس التي كان يدرسها.

يروي لنا الشاب الصغير قصة اليومين التاليين بعد تلقيه هذا الخطاب. هذه هي الرواية فقط. مجرد ثمان وأربعين ساعة في حياة مراهق مطرود من المدرسة.

حبكة بسيطة لمسألة معقَّدة

قد تبدو حبكة الرواية أبسط من اللازم، أو قد يبدو أن ليس هناك حبكة على الإطلاق، وهذا صحيح إلى حد ما؛ فقوة هذه الرواية ليست في حبكتها، بل في طريقة سردها وحوارها ومحادثة الذات في داخلها.

والحقيقة أن طريقة تركيب الحوار في هذه الرواية ثورية جداً؛ فعلى الرغم من أن الرواية كلها يرويها هولدن كولفيلد باستخدام ضمير المتكلم، البسيط والمحدود القدرة، أو ما يعرف أدبياً بأسلوب «الشخص الأول»، وعلى الرغم من أن الطريقة التي يسرد بها الرواية هي الطريقة التي يتحدث بها معظم المراهقين أيضاً، بكل ما فيها من لعثمة، واضطراب، وسخرية، وتشتت، وبذاءة، وتكرار غير مقصود، إلا أن تأثير هذه الطريقة كان نافذاً وقوياً؛ فالسرد والحوار طبيعيان وعفويان وتلقائيان لدرجة غير مسبوقة، لا يظهر فيها أي افتعال أو تصنُّع، ولن يشعر القارئ، ولو للحظة، أن الروائي حاول أن يوجِّه أياً منها إلى مكان ما، بل إنها كانت تبدو وكأنها أحاديث عادية مبعثرة تكتب نفسها بنفسها، ومع ذلك فهي دقيقة وعميقة ومقصودة. وفي النهاية، نجد أنها لم تقنع القارئ بطريقة تفكير هولدن كولفيلد فحسب، بل جعلته ينظر إلى العالم كله من خلالها. حقيقة أني أجزم أن هذا العمل هو أفضل عمل استخدم أسلوب «ضمير المتكلم»

فـي السرد، ومـن أفضل الأعمال من ناحيـة بناء الحوار، في الأدب الحديث.

إلى أية درجة قد تكون حياة البشر فاسدة؟ وإلى أية درجة حياتهم مزيفة؟ وهل بالإمكان تغيير ذلك؟ يقنعـك هولـدن كولفيلـد أن حيـاة البشر أكثـر فساداً وزيفاً وأعصى علـى التغيير مما تتصور. العالم في نظره مجرد إعلان تجـاري مخادع، والنـاس لا يتعدون كونهم ممثليـن رديئين فيه. ممثلـون لا يرى فيهم سوى الضحالـة والزيف والنفاق، ولا يفلت مـن رؤيته هـذه سوى الأطفـال؛ فالأطفال عنده هم الفئة الوحيدة الصادقة والبريئة، والمسألة لا تتجاوز كونها وقتاً وينفد، ليكبر بعدها الأطفال ويصيروا ممثلين رديئين آخرين.

صُدم سالنجر بزواج من أحبها بتشارلي شابلن فعادى السينما وانعزل عن المجتمع إلى يومنا هذا

عندما يقدِّم هولدن كولفيلد آراءه هذه، وعندما يصدر هذه الأحكام والتعميمات نجده يكـرّ ويفرّ. فتارة تجده ساخطاً، وتـارة ساخـراً، وتارة بذيئـاً، وتارة لا مبالياً. لكنه، في كل الأحوال، يشدّ القـارئ، يقنعه، يخدّره، وفي النهاية يسيطر عليه. وعندما تصل الرواية إلى آخر كلمة، يكون القارئ قد صار «حارس حقل شوفان» آخر.

اللغة مبتذلة وصادقة

القضيـة الكبـرى التـي أثارتهـا هـذه الرواية هـي لغتها؛ فالروايـة مكتوبة بلهجة سكان نيويورك العامية، وليس هذا فحسب، بـل إن بطل الرواية شخص كثيـر السباب واللعن والشتـم. تبدو هـذه اللغة طريقة همجيـة وبذيئة في كتابة الروايـة، لكنها، فـي الحقيقة، طريقة مميـزة وواقعية في السـرد وفي رسـم شخصية بطل الروايـة؛ فقد استطاعت هذه اللغة أن تعبِّر عن شحنة الغضب والغل عنده، ومن جهة أخـرى، فإن غاية هولدن كولفيلد هـي الهروب من الزيف، واللغـة المتكلفة الباذخة، بلا شـك، هي تزييف كبير. على كل حال، يـرى اللغويون هذا العمل كنزاً ثميناً؛ فهو يسجِّل، بشـكل دقيق، المفـردات، والتعابير التي كانـت رائجة بين المراهقيـن فـي نيويـورك إبـان الخمسينيات مـن القرن الميلادي الماضي.

وعلى الرغم من كل الغايات الأدبية لهذا الاستخدام اللغوي، إلا أن ضريبتهـا كانـت باهظة. فبحسب جمعيـة المكتبات الأمريكيـة، احتلـت هذه الروايـة المركز الثالـث عشر في قائمـة أكثر الروايـات المحظورة في المدارس والمكتبات العامـة، بل إنه في عـام 1960م فُصل أحـد المدرسين في ولاية أوكلاهوما لأنه قرَّر هذه الرواية لطلابه.

أصبح هولدن كولفيلد رمزاً للتحدي والتمرد عند المراهقين. يقـول عنه سالنجر -كاتب الرواية- إنـه شخصية بسيطة جداً ومعقدة جداً؛ فعلى الرغم من أن هذا الشخص ممتلئ بالسخـط، وعلـى الرغم من أنـه أحياناً يبـدو وكأنه يتكلم بصـوت عـالٍ، إلا أن سخريته وحس دعابتـه كان هستيرياً، حتـى أن مـن الصعوبـة أن تجـد صفحـة واحدة فـي هذه الرواية لـم يتحصل فيها هولدن كولفيلد على ضحكة عالية مـن القارئ، وفي الوقـت نفسه فإن مشاعـر هذا الشخص هشة جداً، وقدرته على الانفعال والتأثر وحساسيته مفرطة للغاية.

تقـارن هذه الرواية على الدوام بروايـة «مغامرة هوكليبري فيـن» للأديب مـارك توين؛ فكلتـا الروايتـان بطلهما شاب صغيـر، وتستخدمان ضمير المتكلم فـي السرد، وتتقاربان فـي الموضـوع والحبكة. وبالإضافة إلى ذلـك، فإن كلاً من الروايتيـن ينقل جزءاً من تجربة روائيهمـا الحقيقية، لكن هولـدن كولفيلـد يتفـوّق على هوكليبـري فين راويـاً بحكم الطريقة، والمفردات، التي جعله سالنجر يتحدث بها.

كاتـب الرواية هو جيروم ديفيـد سالنجر، و«الحارس في حقـل الشوفان» هي روايته الوحيـدة، وهي عمله الأشهر. فقـد صدرت له عـدة قصص قصيرة قبـل هذه الرواية، وصدرت له بعدهـا ثلاث مجموعـات قصصية قصيرة، وقصـة واحـدة. وقد ظهـرت شخصية هولـدن كولفيلد، وبعضـ شخصيـات هـذه الروايـة، أول مـره، فـي عـام 1945م، فـي قصة قصيرة اسمها «إننـي مجنون»، ومره أخرى في عام 1946م، في قصة عنوانها «تمرّد ماديسون الطفيف». وقد شكَّلت هذه وقصص أخرى كتبها سالنجر في فترة الأربعينيات أسس بعض فصول وشخصيات هذه الرواية.

ولد سالنجر، طفلاً ثانيـاً وأخيراً، في مدينة منهاتن بولاية نيويـورك في عـام 1919م لأم أيرلندية - اسكوتلنديه ولأب بولندي. وكانت عائلتـه ميسورة الحال. تخرَّج من أكاديمية عسكرية عـام 1936م، وفـي العام التالي تعـرَّف على فتاة

تُدعى أونا أونيل وأحبها، ولكنه صدم كثيراً حينما علم أنها تزوجت الممثل شارلي شابلن، مع فارق السن بينهما. يقول سالنجر في إحدى المقابلات الصحافية إن حياته الشخصية تشبه كثيراً حياة هولدن كولفيلد.

لم يحرِّك سالنجر ساكناً تجاه نجاح روايته الساحق. بل إنه رفض أن تنشر صورته على غلافها. وعلى الرغم من ذلك، تواصل اهتمام وسائل الإعلام به ومطاردتها له، حتى تعمَّد تقليل نشر أعماله، ثم توقف في النهاية عن النشر. بل أصبح يصف النشر بأنه «مقاطعة مزعجة». وتطورت الأمور حتى انكفأ على نفسه، وابتعد عن الناس، وانعزل عن المجتمع تماماً. ولا يزال هذا المؤلف في عزلته حتى الآن، وهو على أبواب التسعينيات، في ولاية نيوهامبشير، حتى أن مجلة «تايم» وضعت صورته على غلافها، في أحد أعداد عام 1961م، تحت عنوان «حياة من العزلة».



ازدراء السينما المزيِّفة

في عام 1949م صدر فلم «قلبي الغبي»، الذي اعتمد على قصة سالنجر القصيرة «العم وينقلي في كونكتيكت»، وقد حوِّرت هذه القصة في الفلم كثيراً. وقد كان هذا التحوير سبباً لرفض سالنجر القاطع لأي محاولة لنقل أي عمل آخر له للسينما، على الرغم من تلقيه عدة عروض من مخرجين ومنتجين كبار لتبنِّي أعماله.

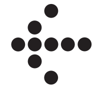
وفي عام 2007م صدر فلم عنوانه «الفصل 27» عن حادثة اغتيال جون لينون، وعنوان الفلم يشير إلى رواية «الحارس في حقل الشوفان» التي تنتهي عند الفصل 26، وكأن هذا الفلم تتمة للرواية.

وفي عام 2008م صوَّر أحد المخرجين أغرب فلم يمكنك أن تسمع عنه في حياتك، والفلم هو عبارة عن صورة شاشة زرقاء فقط تظهر 75 دقيقة وست ثوانٍ، لا أكثر من ذلك ولا أقل، وقد جعل عنوان هذا الفلم «الحارس في حقل الشوفان».

نلاحظ في معظم أعمال سالنجر ازدراء هوليوود بصفتها منارة للتزييف والخداع. ربما كان رأي سالنجر هذا، رغم تجربته السينمائية الوحيدة، سبباً لرفضه تحويل أعماله أفلاماً سينمائية، وربما يكون هذا الرفض، بل وحتى رأيه نفسه، لا يتعدى كونه ردة فعل بعد زواج الفتاة التي أحبها من الرمز السينمائي شارلي شابلن، لكن بغض النظر عن هذا وذاك، فسالنجر قدَّم في هذه الرواية آراء سينمائية عميقة ورائعة، مع أنها كلها كانت مغلفة بالتهكم والسخرية.

ترجمت هذه الرواية إلى كل اللغات الكبرى في العالم، وترجمها إلى العربية الروائي الأردني غالب هلسا، رحمه الله، منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وأعادت «دار المدى» نشر العمل في 2007م. المشكلة التي واجهت الأستاذ غالب هي أن الرواية مكتوبة باللهجة العامية، وعلى الرغم من ذلك استطاع أن يقدِّم ترجمة مميزة لها. لكنه لو طعَّم ترجمته ببعض الكلمات العامية، التي قد تكون لها جذور فصيحة، لكانت ترجمته أكثر تأثيراً في القارئ العربي.

«الحارس في حقل الشوفان» بصمة أدبية مميزة بين الروايات. رواية جمالها في بساطة طرح أفكارها، وقوتها في قدرتها على إقناع قارئها بهذه الأفكار، وهي درس أدبي خاص في بناء الحوار وخلق الشخصيات واستخدام اللغة في الرواية.



مقتطفات

من حوار بطل الرواية مع الآخرين

من الفصل السابع عشر

وعندما يتحدث هولفيلد مع صديقته السابقة سالي، يصارحها بنظرته لهذا العالم:

«هل تشعرين أحياناً بأنك ضقت بكل شيء ولا تستطيعين التحمل أكثر من ذلك؟ أعني هل تشعرين بخوف أن يصبح كل شيء مقيتاً إن لم تفعلي شيئاً ما؟ أعني هل تحبين المدرسة وكل تلك الأشياء؟».

«إنها مضجرة للغاية».

«أعني، هل تكرهينها؟ أعلم أنها مضجرة للغاية، ولكن ما أعنيه هو هل تكرهينها؟».

«حسناً، لست أكرهها بالضبط، فعليك دائماً أن ..».

قلت: «حسناً فأنا أكرهها، أكرهها جداً. ليس ذلك فقط بل أكره كل شيء. أكره الحياة في نيويورك وكل شيء. أكره سيارات الأجرة وباصات شارع ماديسون بسائقيها، وصراخهم الذي يأمرني أن أنزل من الباب الخلفي، أكره التعرف على فتيان مزيفين، وأن تصعد وتهبط في المصاعد لمجرد أنك تريد الخروج، أكره الفتيان الذين يقيسون البنطلونات في متجر بروك، والناس الذين دائماً ..».
قالت سالي: «أرجوك لا تكثر من الصياح».

وكان ذلك مضحكاً جداً لأنني لم أكن أصرخ. قلت بصوت هادئ:
«خذي سائقي السيارات مثالاً. معظم الناس مهووسون بالسيارات. يتملكهم القلق إذا خدشت السيارة خدشاً بسيطاً. وهم دائماً يتحدثون عن عدد الأميال التي تقطعها السيارة بالجالون الواحد، ولو اشتروا سيارة جديدة فإنهم يشغلون أنفسهم بالتفكير في استبدالها بسيارة أجدد. وأنا حتى لا أحب السيارات القديمة بل أفضل عليها حصاناً لعيناً، فالحصان، على الأقل، إنساني. على الأقل، فيما يختص بالحصان ..».

قالت سالي: «لا اعرف عما تتحدث. فأنت تقفز من موضوع ..».



قلت: «تعرفين شيئاً؟ ربما كنت أنت السبب الوحيد لبقائي في نيويورك في هذه اللحظة، أو في أي مكان آخر. لو لم تكوني هنا لكنت في مكان بعيد جداً، في الغابات أو في مكان لعين آخر. أنت السبب الوحيد لبقائي بالفعل».
قالت: «أنت ظريف».

غير أنه كان واضحاً أنها تريدني أن أغير الموضوع. قلت: «عليك أن تدرسي في مدرسة الصبيان. جربي ذلك مرة واحدة. إنها مليئة بالمزيفين، وكل ما تفعلينه هناك هو الدراسة لتنالي قدراً من العلم يجعلك تملكين المهارة الكافية لشراء سيارة كاديلاك لعينة يوماً ما. وعليك خلال ذلك بالتظاهر أنك شديدة الاهتمام إذا انهزم فريق كرة القدم، وكل ما تتحدثين عنه هو الفتيات، الجنس، والجميع يتكتلون في مجموعة قذرة. الفتيان الذين يلعبون البيسبول يشكلون مجموعة. والكاثوليك مجموعة، والمثقفون مجموعة، والذين يلعبون البريدج مجموعة. حتى الفتيان الذين ينتمون إلى نادي كتاب الشهر لهم مجموعة، وإذا حاولت أن تثيري حديثاً ذكياً ..».

قالت سالي: «اسمع، كثيراً من الأولاد يخرجون من المدرسة بأكثر من هذه الأشياء».

قلـت: «إنني أتفق معـك! أتفق معك بـأن بعضهم يخرجون مـن المدرسة بأكثر من هـذا! أما بالنسبة لي، فهذه هي كل الفائـدة التي أخرج بها. أترين؟ ذلك ما كنت أود أن أقوله. هـذا ما قصدتـه بالضبط. إنني لا أخرج بـأي شيء من أي شيء».

من الفصل الثاني والعشرين

وفـي أحد المشاهد يتحدث هولدن كولفيلد لأخته الصغيرة فيبي وهي مستلقية على سريرها في غرفتها، اكتشفت فيبي أنـه طُرد من المدرسـة، ولكنه حاول أن يبـرِّر ذلك بالقول بأنـه غادرهـا لأنه لا يحبهـا وسئم منها، ولـم يُطرد. فترد عليـه أخته بأنه يكره كل شيء لا مدرسته فحسب؛ ثم يجري بينهما هذا الحوار: (السطر الأول تقوله فيبي):
«أنت لا تحب أي شيء يحدث».

أصبحت أكثر كآبة عندما قالت ذلك.
«أجـل، أحب، أجـل، أحـب، بالتأكيد أحـب. لا تقولي هذا. لماذا تقولين هذا؟».



«لأنـك لا تحب. أنت لا تحب أية مدرسة، أنت لا تحب مليون شيء لا تحب ..».
قلـت: «على العكس! أنت في هذا مخطئة، في هذا بالضبط يكمن خطؤك! لماذا تقولين هذا؟».
جعلني قولها كئيباً ومنقبضاً.

قالت: «لأنك لا تحب، اذكر لي اسم شيء واحد تحبه».
قلت: «شيء واحد؟ شيء أحبه؟ حسناً».
كانت المشكلة أني عجزت عن التفكير بقوة. أحياناً يصعب عليك أن تركز تفكيرك.
سألتها: «تعنين أن أذكر شيئاً واحداً أحبه كثيراً؟».
غيـر أنها لم ترد. كانت مستلقية على ظهرها رافعة ركبتيها قليـلاً على رأس السريـر. كانت بعيدة عنـي آلاف الأميال.
قلـت: «هيـا جاوبيني، هل أذكـر شيئاً أحبه كثيـراً أم شيئاً أميل إليه فقط؟».

«تحبه كثيراً».
قلت: «حسناً».
ولكنني لم أستطع التركيز ....
«هـل تعرفيـن الأغنية التي تقـول: إذا أمسـك إنسان بآخر يعبر حقل الشوفان؟ أحب أن ...».

قالت فيبـي: «إنها هكـذا: إذا قابل إنسان آخـر قادماً عبر حقل الشوفان. إنها قصيدة من تأليف روبرت بينز».
«أعرف أنها قصيدة من تأليف روبرت بينز».

كانـت على حـق. فالقصيدة تقـول: «إذا قابـل إنسان آخر قادماً عبر حقل الشوفان». لم أكن أعرف ذلك ساعتها.
قلت: «ظننـت أنها: إذا أمسك إنسـان بآخر. على أي حال، فأنـا أصـور لنفسي هؤلاء الأطفال يلعبـون لعبة ما في حقل الشوفـان هذا الكبيـر. آلاف من الأطفـال الصغار ولا أحد غيرهـم هنـاك، لا أحد من الكبـار، أعني، عـداي أنا. وأنا واقـف على حافة هضبة جنونية. ومهمتي الإمساك بكل من يحـاول الصعود إلـى الهضبة، أعنـي أن الأطفال ينطلقون راكضيـن ولا يحاولـون أن يتبينـوا اتجاهـهـم، فمهمتـي أن أتقدم وأمسك بهم. يكـون هذا هو عملي طول اليوم. وبهذا أصبـح الحارس فـي حقـل الشوفـان. أعلم أن هـذا شيء جنونـي، ولكن هذا هو الشـيء الوحيد الذي أحب أن أكونه. وأنا أعلم أن ذلك جنون».

قول آخر

القصة القصيرة جداً في مصر

شوقي بدر يوسف*

تناول الباحث المصري سامح الصاوي فى دراسة نشرتها القافلة له فى عددها الماضي تناول فيها مجموعة الكاتبة السعودية هيام حسون المفلح «كما القلق يتكئ الجمر»، أطلق الباحث فى نهاية دراسته سؤالاً عن موقف كتَّاب مصر من القصة القصيرة جداً التى كانت محور الدراسة. وكان سؤاله هذا يشبه إلقاء حجر فى الماء الراكد لتتسع الدائرة حول هذا الموضوع الذى يمثِّل الآن واقعاً جديداً في مجال القصة القصيرة.

والمتتبع للمشهد القصصي المصري في جوانبه المختلفة يجد أن القصة القصيرة جداً أصبحت الآن واقعاً ملموساً ومتميزاً، وأنها تحتل مكانة خاصة فى هذا المشهد، وأن المبدعين فى مجال السرد القصصي فى مصر قد ولجوا هذا المجال منذ مدة طويلة، وأصبح المصطلح راسخاً فى المشهد الأدبي المعاصر. وإن كنا لا نرى توصيف «قصص قصيرة جداً» عبارة ظاهرة على غلاف عدد كبير من المجموعات القصصية على الساحة الأدبية المصرية اليوم، إلا أن معظم المجموعات القصصية التي تحتويها المكتبة القصصية الآن تحتفي بهذه الصيغة من الكتابة. فالتجريب في هذا المجال أضحى من الأركان الأساسية لدى معظم كتَّاب القصة فى مصر كتَّاباً كانوا أم كاتبات، وقد لقي صدى قوياً على مستوى النشر فى الدوريات المختلفة لاعتبارات التكثيف الشديد في حجم القصة وانطباعاتها الموحية والدالة لدى القرَّاء. لكن هناك بعض الحذر الذي يمنع كتَّابها القصة القصيرة جداً من نشر مجموعات خاصة تقتصر على هذا الجنس الأدبي وحده، فيفضلون أن يعرضوا تجاربهم فيها منثورة وسط إنتاجهم من القصة القصيرة التقليدية. فالمشكلة الأساسية لهذا الجنس الأدبي هي أن هذا اللون من الكتابة لا يحظى بالقبول الكافي والمطلق لدى بعض كبار الكتَّاب والنقاد. بل إن بعضهم يقفون حجر عثرة أمامه ويرفضون الاعتراف به، وكأنهم يمثلون الحرس الحديدي القديم أمام التغييرات التي يمر بها القالب التقليدي للسرد القصصي.

وللقصة القصيرة جداً فى مصر كتَّابها الذين يحتفون بها ويبدعون فى مجالاتها المختلفة، ويعد محمد المخزنجي وسناء البيسي من أول من كتب هذا اللون من الكتابة وأرسى دعائمه فى المشهد المصري المعاصر بصدور مجموعات المخزنجي القصصية منذ أوائل الثمانينيات وحتى الآن وهي مجموعات «الآتي، رشق السكين، البستان، ذبابة زرقاء، والموت يضحك، وسفر، وأوتار الماء، والغزلان تطير»، وصدور مجموعتي سناء البيسي «فى الهواء الطلق 1973، وهو وهي 1984».

ويحتوي المشهد المصري على بعض النماذج المعبرة عن ريادة مصر لهذا اللون الأدبي، فنجد مجموعات «المسافر الأبدي» لعلاء الديب 1999، «سرداب» لعفاف السيد 1998، «لحظات في زمن التيه» للسيد نجم 1994، «أطياف ديسمبر» و«نقوش وترانيم» 2003 لمي خالد، «شخص غير مقصود» لمنتصر القفاش 1999، «بنات في بنات» 2001 لصفاء عبدالمنعم، «بيت النسيان» لعبدالفتاح الجمل 1999، «للجبل أغان أخرى» 2001 للدكتورة هيام صالح، «أرجوحة» لسمير الفيل 2002، «الجدار السابع» لأحمد محمد عبده 2003، «ربما كالآخرين» 2003 لأسماء شهاب الدين، «طوفان النار» لمحمد حافظ صالح 2000، «تلك» 1999 لأم العز السنيني، «همزة وصل .. همزة قطع» لرضا إمام 2002، «دنيا صغيرة» لابتهال سالم 2002. وهذه نماذج تضمَّنت العديد من القصص القصيرة جداً بل نجد بينها بعض المجموعات التي تحتوى على قصص قصيرة جداً فقط مثل مجموعة رضا إمام وأم العز السنيني. فمجموعتهما كلها من القصة القصيرة جداً الخالصة والمعبِّرة عن روح العصر فى الشكل والمضمون، وهي نماذج وأمثلة حية لما على الساحة المصرية فى هذا المجال.

إضافة إلى ذلك، فإن الدوريات الأدبية المصرية تحتفى بمثل هذا اللون من الكتابة القصصية. وتعد مجلات الثقافة الجديدة والقصة وإبداع وأدب ونقد ونصف الدنيا وجريدة أخبار الأدب والصفحة الأدبية لجريدة الأهرام، ساحات مهمة ومؤثرة لنشر هذا النوع من النصوص الإبداعية، وعرضها على جمهور مستعد لتقبل التجديد، وقادر على رؤية مزاياه، من دون أن يتقيد بعرضه على القوالب النقدية والمعايير التي يضعها أهل الاختصاص للحكم على عمل إبداعي معين.

ولعل هذه العجالة المتحلقة حول القصة القصيرة جداً في مصر هي التي جعلتني أتذكر هذه التسمية التى أطلقها عباس محمود العقاد على فن القصة القصيرة حينما كان يساجل نجيب محفوظ القاص الشاب على صفحات مجلة الرسالة في منتصف الأربعينيات حين أطلق على القصة القصيرة اسم «القصة الصغيرة» فماذا لو عاش العقاد إلى يومنا هذا وقرأ هذا اللون من الكتابة القصصية وأي اسم كان سيطلق عليها؟

* ناقد وكاتب من مصر



السؤال وعلامته

لو جاز لنا تشبيه السؤال بشيء، لقلنا إنه يشبه الهواء الذي نتنفّسه ويحيط بنا باستمرار لا انقطاع فيه. ومع ذلك، يندر أن نلتفت إليه في ذاته أو أن نحسب حساب وجوده في حياتنا على نحو واع وواضح.

ولا شك في أن عمر السؤال من عمر النطق عند الإنسان. وهو الباب الرئيسي إلى المعرفة والاكتشاف والعلم، وإدراك الإنسان لحقيقة العالم الذي يحيط به. أولم ترفع إحدى كبريات الجامعات في أمريكا شعاراً لها يقول: «ما هو الإنسان إن لم يكن سؤالاً؟».

وإذا كان السؤال الشفهي يتخذ طابعه من خلال «تلحين» مفرداته، فللسؤال المكتوب، حيث التلحين غير ممكن، رمز محدد يحل محل اللحن، للإشارة إلى أن هذه الجملة تعبِّر عن عدم معرفة أمر معين، أو عن البحث عن حقيقة: إنها علامة الاستفهام.

فريق القافلة يصحبنا في هذا الملف إلى عالم هذا الرمز الصغير الذي يختزل ببساطته الشديدة سعي الإنسان إلى المعرفة واستفهامه الدائم عما يجهله، حتى تحوَّل، من دون أن تسبقه أية كلمة إلى رمز متكامل بمفرده لما هو غامض ومجهول ومستعصٍ على المعرفة.



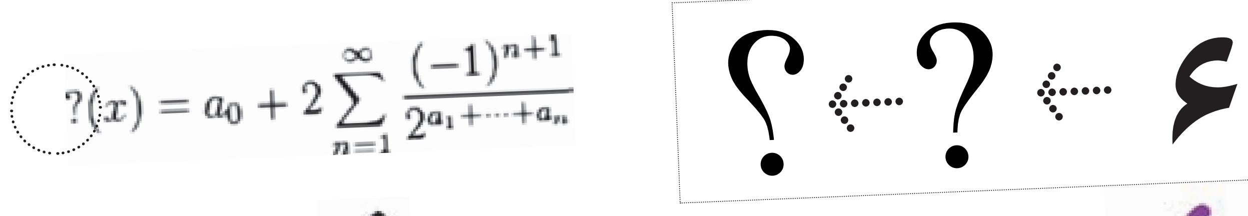
السؤال هو الجهد الذهني الذي لم يغب يوماً عن حياة الإنسان على مر التاريخ. فكما أن السؤال طريق الإنسان القديم للحصول على طعامه أو طريدته، يبقى هو نفسه اليوم الطريق إلى المعرفة عند العلماء. وغالباً ما تؤدّي الإجابة عن سؤال في العلم، إلى ولادة أسئلة ما كانت لتخطر على بال صاحب السؤال.

وما بين الأسئلة الكبرى في العلوم والفلسفة والقضايا العامة الغامضة، تتألف حياتنا اليومية من جملة أسئلة صغيرة: كيف الحال؟ كم الساعة؟ إلى أين أنت ذاهب؟ ما هو طعام الغذاء؟ ولكن صغر هذه الأسئلة لا يعبِّر عن مكانتها ولا عن دورها. إذ إنها تشبه الضوء الذي نحتاج إليه باستمرار للمضي قدماً في أعمالنا ومسيرة حياتنا اليومية. ولو حاول أحدنا أن يُمضي يوماً كاملاً بين بيته والعمل من دون طرح أي سؤال من أي نوع، للاحظ مدى الاضطراب الكبير الذي سيميز يومه، والخسائر التي سيمنى بها.

شفهياً، عرف الإنسان كيف يميِّز السؤال عن باقي الكلام من خلال هذه الانحناءة المميزة في نغمة الكلمات المعبِّرة عن السؤال، والتي تختلف عن التنغيم المستقيم للكلام عندما يكون خالياً من الاستفهام. واللافت أن انحناءة النغم الاستفهامية هذه واحدة في كل لغات العالم المعروفة.

أما في الكتابة فيُسَدُّ الفراغ الناجم في تعذر كتابة النغم الصوتي بعلامة الاستفهام المعروفة التي «ترسم» على شكل قوس ينتهي من الأسفل بخط مستقيم وتحته نقطة. وعلامة الاستفهام هذه هي مجرد ابتكار حديث العهد نسبياً مقارنة مع تاريخ الكتابة العريق، ظهر في إطار تطوير الكتابة نفسها في اتجاه يسهل قراءتها بشكل صحيح أكثر فأكثر. وكان تنقيط الحروف من أهم الإبداعات في هذا المجال. وفي إطاره فقط ظهرت علامة الاستفهام. فمن ابتكر علامة الاستفهام ومتى؟







أصل علامة الاستفهام لا يزال علامة استفهام

تتعدد التفاسير الباحثة عن أصل هذا الشكل الذي يرافق كل سؤال مكتوب. ولكـن علامة الاستفهام حول أصل علامة الاستفهـام، لا تزال بلا جواب علمي يقطع الشك باليقين.

فهـل هي مجرد رسم مبسط لشكل الأذن التي نسمع بها السؤال كما يقول بعض الذين بحثوا في أصلها؟

أم هي تطوير لشكل الهمزة العربية المستقاة من حرف الألف تعلوه همزة، التي تبدأ به إحدى صيغ السؤال مثل القول: أتريد كذا؟

أم أنهـا اشتقت من كلمـة Quastio اللاتينية، التي تعني «سؤال»، والتـي اختصرت في القـرون الوسطى، فأخذت مـن حرفها الأول Q الشكل المستدير، ومن حرفها الأخير النقطة السفلى؟

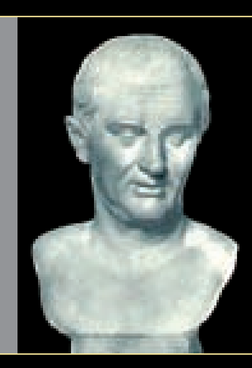
إذ ينسـب بعـض المؤرخيـن الأوروبييـن أصـل علامـة الاستفهـام، أي شكلها المكتـوب الذي نعرفـه اليوم، إلى القـرن الميـلادي التاسع، حيـن كانت الثقافـة الأوروبية لا تزال تستمـد الكثير من مصادرها الأندلسية. حينذاك كانـت هذه العلامـة تكتب نقطةً يليها قـوس مستدير C. ويعـزز هذا القول الاعتقاد بـأن الهمزة العربية التي تليها نقطة، كانت أصل علامة الاستفهام، وأن الأوروبيين الذين يكتبـون من اليسـار إلى اليميـن، قلبوا الترتيـب فوضعوا النقطـة قبـل القوس، مثلما فعـل العرب فيمـا بعد، حين قلبوا علامة الاستفهام، وجعلوا يمينها يساراً (؟)، لأنهم يكتبون من اليمين إلى اليسار. والاعتقاد أن أصل علامة الاستفهام يمكن أن يكون عربياً، يستمد حجة قوية من أن الشكل الأول الذي اتخذته، يمكن تشبيهـه بالهمزة فعلاً، وأن التّماس الثقافي الذي كان بين العرب والقوط والغاليين، في إسبانيا وفرنسا في القرن الميلادي التاسع كان وثيقاً جداً. لكن الأمر يظل في حدود الشبهة، ولا يرقى إلى مرتبة اليقين.

ولكن ثمة أسباباً للشك في النظرية العربية لأصل علامة الاستفهام، منها أن نظـام التنقيط في الكتابة الأوروبية، ظهر في القرن الميلادي السابع، ولم يكـن العرب قد دخلـوا الأندلس بعد. ولم يكـن الاحتكاك الحضاري والثقافي قد نشـأ بين المسلمين والأوروبيين. ويناقـض هذه النظرية أن التنقيط الأوروبي لم يرس على أسسه التي نعرفها اليوم، إلا بدءاً من ظهور





أسئلة شيشرون



من
أين
لماذا
متى
ماذا
كيف
؟

من الأدب اللاتيني الذي ظهر في القرن الثاني عشر الميلادي، هناك بيت شعر حظي بشهرة كبيرة حتى تحول إلى شعار أو ما شابه الحكمة. وبيت الشعر هذا قد يكون الأغرب في كل تاريخ الشعر، لأنه عبارة عن سبعة أسماء استفهام، هي على التوالي:

«من، ماذا، أين، بأية وسيلة، لماذا، كيف، ومتى.»

والواقع أن بيت الشعر هذا يقوم على فكر الفيلسوف والخطيب الروماني شيشرون (106 – 43 ق.م.)، الذي حدد في كتابه النظري «حول الاختراع» الأسئلة السبعة التي يجب أن تحيط بالسعي إلى معرفة الظروف المحيطة بعمل ما أو بالطريق إلى إنجازه.

وحتى عصرنا هذا، لا تزال هذه الأسئلة في صميم فلسفة البحث العلمي، على الرغم من أن بعض المجالات يتحمل اختصارها أو إجراء التعديل عليها.

في حين أن التحقيق البوليسي في وقوع جريمة ما يتضمن طرح هذه الأسئلة السبعة سعياً إلى الحقيقة. نذكر على سبيل المثال أن المحلل السياسي الذي يريد أن يفهم حقيقة تصريح سياسي بشكل أعمق من المعنى المسطح الوارد في الكلمات، يجب أن يسأل:

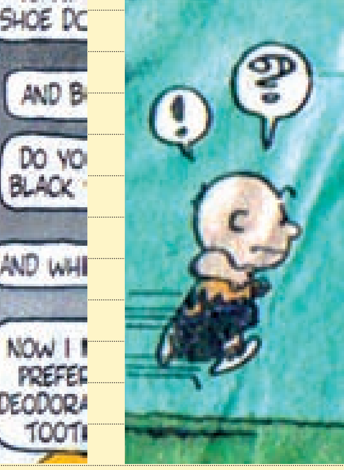
من؟ لأن التصريح يستمد قيمته من وزن قائله.

أين؟ لأن المكان الذي أدلى فيه بالتصريح يؤثر في قيمته (وحتى في صدقية معناه الظاهر)

متى؟ لأن التصريح مرتبط بتزامنه أو بتأخره أو بتقدمه على أحداث أو ظروف محيطة بوقت صدوره.

وإلى ذلك يضيف السياسيون سؤالاً خاصاً بعالمهم: من هو المستفيد من هذا التصريح؟





الطباعــة سنــة 1434م. وهو على أي حال، نظام ظـل يتطور إلى العصور الحديثة.

ويـرى البعـض أن الأوروبييـن كانـوا يستخدمـون علامـة .C وهـي خط انحناء، يتبـع السؤال، تقليداً لصوت السائل، الذي ينحني بنغمة الكلام، عندمـا يسـأل، فيما يكون تنغيم صوته مستقيماً عنـد الكلام الخالي من الاستفهام.

وثمة نظرية تاريخية أخرى تنسب علامة الاستفهام إلى القرون الوسطى، وأنها بدأت تُكتب، مثل علامة مفتاح الصول الموسيقي وتحته نقطة. وقد يتعـزز هذا القول بأن علامة السـؤال كانت نوعاً من التعبير المكتوب عن تنغيم لهجة السؤال.

أما النقطة التـي ترافق علامة الاستفهام، فهي شائعة في نظام التنقيط فـي الكتابة الأوروبيـة. فنجدها في علامات عديدة، هـي نقطة الوقوف، وعلامة التعجب، وعلامة الاستفهام، إضافة إلى علامة النقطة والفاصلة، والنقطتين المتعامدتين: ، والنقط الثلاث...، التي تدل على الاسترسال، أو ترك التتمة لخيال القارئ.

وثمة علماء اليوم يعودون بأصل علامة الاستفهام إلى ليو الردموندي، أحد حكماء اليونان السبعة.



علامة الاستفهام في العالم

تعتمـد علامة الاستفهـام الشكل نفسه فـي بعض اللغات مثـل الفرنسية والإنجليزيـة، حيث لا تختلف عنها في العربيـة إلا بكون صورتها معكوسة يميناً يسـاراً طالما أن العربية تكتب من اليميـن إلى اليسار. ولكن بعض اللغات تختلف في تعاملها مع علامة الاستفهام، ففي الإسبانية ولغة بلاد الغال يجب وضع السـؤال بين علامتي استفهام، الأولى مقلوبة رأساً على عقـب والثانية مستقيمة. وفـي اليونانية تستخدم النقطـة والفاصلة (؛) علامة للاستفهـام. أما اللغة الأرمنية فتعتمـد للاستفهام دائرة صغيرة مفتوحة من الأسفل تعلو آخر حرف علّة من آخر كلمة في السؤال. ويستخدم الصينيون واليابانيون علامة الاستفهام التي نعرفها، غير أن استخدامها غير إلزامي في اليابانية.

متى وكيف تُستخدم

حين نسأل سؤالاً، فكتابة السؤال تحتاج إلى وضع علامة استفهام في آخر جملـة السؤال. كقولـك: متى ستزورنا؟ لكن البعـض يخطئ في كثير من الأحيان، إذ يضع علامة استفهام، في آخر جملة الاستفهام غيـر المباشر، مثل قولـك: سألته متـى ستزورنا. في هذه الحال، لا توضع علامة استفهام، لأن الجملة سردية، تشير إلـى السؤال الـذي سئل، ولا تسأل فـي الحقيقة. وعندما نقول: هل تعرف متى ستزورنا؟ عندئذ يجب وضع علامة الاستفهـام، لكنهـا علامة تتعلـق بسؤالـك: هل تعرف، وليست متعلقة بقول: متى ستزورنا. ويخطئ البعض إذ يضع نقطة لوقف الجملة بعد علامة الاستفهام، مثل: هل ستزورنا؟. أمـا القاعدة، وهي في أي حال قاعدة استوردناهـا إلى العربية من اللغات الأوروبية، فهي أن

سأل يسأل فهو سائل



فالرجل مفعول به أول، ومال مفعول به ثان. أما مصدر فعل سأل، فهو متعدد: سأل سُؤالاً، وسَآلَةً، ومَسْألةً، وتَسْآلاً، وسَأَلَةً.

ويقال: سألتُ أسألُ، وسَلْتُ أسَلُ، باختصار الهمز. وتساءل الرجلان، أي تبادلا السؤال، يتساءلان، ويتسايلان، بإبدال الهمز ياء. وتساءلوا: سأل بعضُهم بعضا. ويقال كذلك: ساءل بمعنى سأل. ومنه قول الشاعر ابن ذؤيب:

أساءلتَ رسمَ الدارِ أم لم تسائلِ   عنِ السَّكْنِ أم عن عهدِهِ بالأوائلِ

وقد جاء فعل السؤال وما يشتق منه في القرآن الكريم، في عدد من المواضع، إذ قال عز من قائل: ﴿واتّقوا الله الذي تَسَاءَلُونَ به والأَرْحَام﴾ (النساء: 1). وقال سبحانه وتعالى: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسئُولاً﴾ (الفرقان: 16).

وقد وردت في التنزيل العزيز صيغ كثيرة مشتقة من مصدر السؤال، نذكر منها:

سأل، سألتك، سألتكم، سألتم، سألتموه، سألتموهن، سألتَهم، سألك، سألها، سألهم، سألها، سألوا، أسألك، أسئَلكم، تسئَلْني، تسئَلُهم، تسئَلوا، نسئَلُك، لَنَسئَلَنَّهم، يَسئَل، يسئَلُك، يسئَلُكم، يسئَلْكموها، يسئَلُه، يَسئَلوا، يَسئَلون، يَسئلونك، اسئَل، سَئَلَه، سئَلَهم، اسْئَلوا، سئَلوهم، سئَلوهن، سَل، سَلهم، سُئِل، سُئِلَت، سُئِلوا، تُسئَل، لتُسئَلُنَّ، تُسئَلون، نُسئَل، يُسئَل، لَيُسئَلُنَّ، يُسئَلون، تساءَلون، ليَتَساءَلوا، يتَساءَلون، سُؤَلك، سُؤال، سائِل، السائِلين، مَسئُولا، مسئُولون.

وقد فسر اللغويون معاني السؤال، في مختلف أحواله، ففي قوله تعالى: ﴿وَعْداً مَسْئُولاً﴾ (الفرقان: 16) قال ثعلب: وعداً مسئولاً إنجازُه، يقولون: ربنا قد وعدتنا، فأنجز لنا وعدك. وفي قوله عز وجل: ﴿وقدَّرَ فيها أقوَاتَهَا في أَرْبَعَةِ أيّامٍ سَواءٌ للسَّائِلين﴾ (فصلت: 10)، قال الزجاج: لأن كلا يطلب القوت ويسأله. وفي قوله عز وجل: ﴿وَقِفوهُم إِنَّهُم مَسئُولُون﴾ (الصافات: 24)، قال الزجاج: سؤالهم سؤال توبيخ، لأن الله عالم بأعمالهم.

وأَسْألتُهُ سؤلتَه ومسألتَه، أي قضيتُ له حاجتَه. وسألتُه الشيءَ أي استعطيته، وسألتُه عن الشيء، استخبرتُه. والسؤال، هو سؤال الناس أموالها، من دون ما حاجة. ومنه التسوّل. وفاعله المتسوّل. ورجل سُؤَلَة، أي كثير السؤال. هذا كله من لسان العرب.

علامــة الاستفهام، مثل علامات التنقيط الأخرى. فهي مثل نقطة الوقف إذا كانـت في آخر الجملة، مثل سؤالك: هــل ستزورنا؟ وانتظار الجواب. وهــي مثل الفاصلة، إذا كانت في وسط الجملة، مثل قولك: هل ستزورنا؟ هــل هذا ضمن برنامجك؟ وعلامة الاستفهام إذن لا تحتاج إلى أي نقطة أو فاصلة بعدها.

ويختلـف الإنجليز والفرنسيون في كتابـة علامة الاستفهام، فالفرنسيون يفصلون السؤال عن علامة السؤال: Allez-vous nous visiter ?
ولا يفصــل الإنجليز في هــذا الموضــع: Do you intend to visit us?، ولذا يسمي الإنجليز هذا «الخطأ» مباعـدة فرنسية (French spacing). وينظــرون إليــه على أنه خطأ إمــلاء، بل إن قاموســ أكسفورد يحث على اجتنابه في الكتابة، أو الطباعة.

وثمة استخدام آخــر لعلامة الاستفهام، في الخطابة، فالسؤال صيغة مــن صيــغ البلاغة. فــإذا ســأل الخطيب جمهــوره: أليس هــذا ظلماً وعدوانــاً؟ أليســت تحظره الشرائــع الدولية؟ فهو هاهنــا لا يسأل ولا ينتظر جواباً، وإن هي إلا وسيلة لتحسين الكلام والخطاب، ولاستثارة تفكير المخاطَبين.

ويكتــب البعــض علامة الاستفهام بيــن هلالين (؟) للإعــراب عن عدم اليقين في شأن ما سبق، مثل يوم ولادة غير مؤكد: ولد وليام شيكسبير في 23 (؟) أبريل سنة 1564. وهذا يعني أن الكاتب ليس موقناً أن يوم 23 هو اليوم المؤكد لولادته.

وفــي عصر التكنولوجيا الرقمية، صار المــرء يرى على شاشة الحاسوب فــي أحيان، علامة استفهام، تغمــزه حين يضيء البرنامج. ذلك يعني أن المعلومــات اللازمة ليبدأ الحاسوب العمل لــم تتوافر له بعد، وأنه يبحث عنها، مثلما يبحث الإنسان عن إجابة، حين يطرح السؤال.

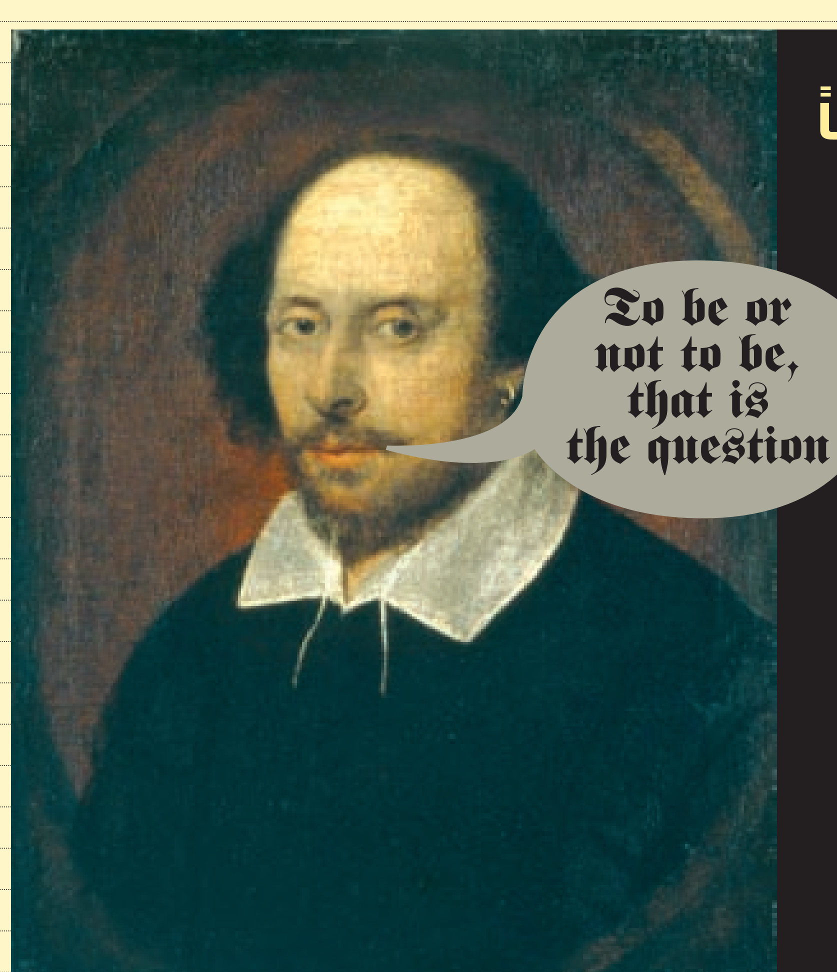
وفــي الصحافة المكتوبة، هنــاك من يخرج من قواعــد استخدام علامة الاستفهام، فيكرر علامة الاستفهام مرتين أو ثلاثاً في آخر السؤال، إشارةً إلــى حدة الســؤال أو الإلحاح في طلب الجواب، أو استغراباً، أو تعبيراً عن الغموض الشديد الذي يلف موضوع الســؤال. وأحياناً نرى في الصحافة علامــة الاستفهــام تصحبها علامة تعجــب تعبيراً عــن الدهشة من أمر غريب إلى درجة التشكيك في حقيقته.

ويخرج استعمال علامة الاستفهام من الكتابة ليدخل عالم الرسم. فنراها في رسوم الكرتون فوق رأس شخص معين، للتعبير عن حيرته أو جهله.

تعبير يتجاوز الاستفهام

تخطى عمر علامة الاستفهام، الآن إذن بضعة قرون من الزمان، تطورت فيها وسائل الكتابــة والتعبير الفني والأدبي والسياسي والاجتماعي، حتى صــارت هذه العلامــة تحمل من سنــوات عمرها الطويــل، معانيَ عديدة وأوجه استخدام كثيرة ومتعددة وغنية.

فمن الناس من لا يستخدم علامــة الاستفهام، للسؤال عن أمر لا يعرفه، بــل قد يكون سؤاله تأكيــداً لمعرفته شيئاً قد لا يــروق للمستمع أنه يعرفه



عندما يكون السؤال جواباً

ثمة أسئلة تحولت هي نفسها إلى أجوبة، نظراً لشهرتها وللإطار الذي طرحت فيه. ففي الشعر الإنجليزي نعرف ذلك السؤال الذي أصبح جواباً لدى معظم شعوب العالم. وهو سؤال وليم شكسبير في مسرحيته الشهيرة هاملت، القائل:
«نكون أو لا نكون، تلك هي المسألة»
(To be or not to be, that is the question) وهذه الجملة ليست سؤالاً في حقيقة الأمر، بل إشارة إلى حجم القضية الأساسية التي تؤرق هاملت في المسرحية. وصارت تستعمل أينما كان للإشارة إلى كل قضية تطرح مسألة الوجود على بساط البحث.

وفي الشعر العربي نعرف أيضاً أسئلة تحولت إلى أجوبة مثل السؤال الذي ورد في أحد أبيات عمر بن أبي ربيعة الذي يقول:

قالت الصغرى وقد تيّمتها   قد عرفناه وهل يخفى القمر؟»

فصار السؤال الوارد على عجُزْ هذا البيت جواباً كثيراً ما يستخدم حتى يومنا هذا جواباً عن سؤال: «هل عرفتني؟».





حقـاً. كأن يسأل المحقق المتهم: **ألم تكـن ليلة الجريمة في موقع الحادثة؟ أو ليست هذه صورتك في المكان؟**

وثمة من يسأل استنكاراً وغضباً، كقولك: **ألا يعجبك حديثي؟**

ويكـون السؤال في بعض الأحيان مجرد أن مـن يطرح السؤال، إنما يحث المخاطَب على سلوك أو يطالبه بإحساس ما، ينم عن خُلُق وتأنيب ضمير مثـلاً. فإذا قلـت للطفل: **ألا تخجـل من أخذك المـال من حقيبة رفيقـك؟** فالسؤال ها هنا لا ينشد معرفة ما لا يُعرَف، ولا الاستدراج إلى قـول ما خفي في موضوع مـا، بل هو نوع من التأنيـب الذي يحض الطفل على ضرورة أن يشعر في المستقبل، بإحساس رادع عن عمل السوء الذي اقترف في مرة سابقة.

وفي أحيان نسأل، لا في باب طلب معرفة شيء لا نعرفه أيضاً، بل في باب قول ما نعرف تمام المعرفـة، لكن غرض السؤال تذكير المخاطَب، بقول قلناه، أو فعلٍ فعلناه، ونريد من المُخاطَب أن يتذكر، وأن يعترف لنا بكوننا كنا على حق. كأن نقول له: **ألم أقل لك أمس إن الرجل كان مسافراً حيـن وقعت الحادثـة؟** أو قولنا: **ألم ترَني كيف أقفلتُ الباب في المرة السابقة؟ ألم أنبهْكَ للأمر؟**

وفـي أحيان يكـون السؤال مجرد لـوم ومعاتبة: **كيف تمضـي كل هذه**

«كيف» على الغلاف



في الثلاثينيّات من القرن الميلادي الماضي، نشر المؤلف الأمريكي دايل كارنيجي كتابه الشهير: «كيف تكسب الأصدقاء». فحَظِي هذا الكتاب برواج منقطع النظير وبيعت منه عشرات ملايين النسخ، ولا يزال رائجاً حتى يومنا هذا.

أدى هذا الرواج إلى ظهور سلسلة عملاقة من الكتب التي تبدأ عناوينها بـ «كيف». كيف تستمتع بعملك وحياتك؟ كيف تحصل على زيادة مرتبك؟ كيف تحصل على الترقية الوظيفية؟ وغيرها. وكثرت السلاسل التي تصدرها دور نشر مختلفة في أمريكا على هذا النهج، وتفاوتت تفاوتاً كبيراً لناحية المستوى والجدية، وجاء هذا الانفجار ليعبر عن تحول في الحياة المعاصرة التي تبدو مزدحمة أكثر فأكثر بالأسئلة المرهقة النابعة من الحداثة ونمط عيشها.

اللافت في هذه الكتب أن شأنها شأن السينما: تخاف علامة الاستفهام بعد السؤال- العنوان. ولكن ما يعود إلى التوجس شراً في عناوين الأفلام السينمائية، له ما يبرره في هذه الكتب التي تزعم أن محتواها يشكل الجواب عن السؤال، وليس توسعة له.. أي أننا مرة أخرى نجد أنفسنا أمام سؤال يشكل بنفسه جواباً أو عنواناً له.

لماذا تخاف السينما الأمريكية علامة الاستفهام ؟

السينمائيون الأمريكيون في هوليوود ومنتجو المسلسلات والأفلام في التلفزيون يتشاءمون كثيراً من علامة الاستفهام، لا سيما في عناوين أفلامهم ومسلسلاتهم.
فثمة اعتقاد شائع راسخ في المحافل السينمائية في هوليوود، أن استخدام علامة استفهام في عنوان فلم أو مسلسل، يحكم عليه حتماً بالفشل والخسارة التجارية المؤكدة. فقد حدث ذلك مرة، لا تذكرها تواريخ السينما، فأعرض المخرجون والمنتجون عن معاودة «المغامرة». ولذا فلن تجد في عناوين هذه الأفلام، على طول تاريخ السينما الأمريكية، إلا ما ندر، رسم علامة الاستفهام.

لقد ظهر الكتاب المعروف: Who Censored Roger Rabbit? سنة 1947م، وأرادت شركة والت ديزني سنة 1988م في هوليوود أن تحوله إلى فلم سينمائي، فحولته فعلاً، لكن عنوانه صار: Who Framed Roger Rabbit، لكن من دون علامة استفهام.
وظهرت أفلام كثيرة في عنوانها سؤال، ولكن من دون علامة الاستفهام:
Quo Vadis، ظهرت كتبه في أحيان مع علامة الاستفهام، وأحياناً من دونها، أما الفلم فخلا منها.
For Whom the Bell Tolls، (من رواية إرنست همنجواي: لمن يقرع الجرس؟) حتى الكتب التي صدرت للرواية، لم تكن تحمل علامة استفهام.
لماذا إذن تخاف هوليوود علامة الاستفهام؟
الجواب: ؟



الأيام ولا تتصل بي لإخباري أنك مريض؟ أو: **هل نسيتَني؟**
وحين ينتهي عنوان كتاب بعلامة استفهام، فقد تكون العلامة استدراجاً للقراء، الذين يطرحون السؤال ولا يعرفون له جواباً. مثل العنوان الذي قد يكون على سبيل المثال: **من هو وليم شكسبير حقاً؟** وقد يجيب الكتاب عن السؤال، وقد لا يجيب، لكن المهم أن العنوان – السؤال، فخ يستدرج القارئ الفضولي لشراء الكتاب بحثاً عن إجابة.
ويمكن أن يقتصر دور السؤال على إضفاء الرقة الأدبية على أمر معين، كما يحدث عندما يريد شخص ما شيئاً أو أمراً من شخص آخر. فبدلاً من التوجه إليه بصيغة الأمر الفجة، يكفيه أن يضع طلبه بصيغة السؤال ليبدو أكثر تهذيباً، مثل القول على المائدة: **أيمكنك أن تعطيني خبزاً؟** بدلاً من «أعطني خبزاً». أو **أيمكنك أن توصلني بسيارتك؟** بدلاً من «أوصلني بسيارتك».

وقد تكون علامة الاستفهام صرخة تخوف أو استنكار، حيال فريق رياضي أو مؤسسة تجارية مثلاً، ساء أداؤه على الرغم من سمعة طيبة اشتُهر بها في مواسم عديدة سابقة. ويكون مقال، يسأل في عنوانه: **النادي الفلاني إلى أين؟** أو: **ما الذي حل بالشركة الفلانية بعد كل هذا النجاح المشهود؟**
ولا يرتبط فحوى السؤال في جوهره باسم الاستفهام المستخدم في طرحة. فعندما يسأل أحدهم: «**متى ستزورنا؟**» فهو ينتظر جواباً. أما عندما يسأل: **متى سيأتي اليوم الذي سأرتاح فيه من العمل؟** فهو لا ينتظر أي جواب. لا بل إنه يعبِّر عن وضع قائم، وعن يأس من تغيير.
باختصار، إن طرح الفكرة نفسها في صيغة السؤال، يحولها في جوهرها إلى فكرة أخرى، يحتاج فهمها إلى حسن التقدير عند المستمع، وهو ما يتجاوز حاسة السمع.



من كيف حالك
إلى الفلسفة والعلوم

ما بين الأسئلة البسيطة الكثيرة التي نطرحها في حياتنا اليومية، والأسئلة الكبيرة والصعبة التي يطرحها العلماء والفلاسفة، هناك قاسم مشترك هـو أن كلاً من هذه الأسئلة يتوسط مرحلتين: الشـك أولاً، ثم اليقين إذا حصل السؤال على الجواب.

ويعد العلمـاء الشك المنهجي الخطـوة الأولى في سلـوك طريق التفكير العلمـي والفلسفي. لكن الشك ينبغي أن يكـون موقتاً، لا حالة مزمنة. لأن غرضه هو أن يكون نقطة انطلاق لبلوغ اليقين أو الحقيقة.

كان ابـن الهيثم، العالـم العربي الأندلسي الـذي اشتهر على الخصوص بتأسيسه علم البصريـات فيلسوفاً من أهم مؤسسي مبدأ الشك العلمي. فهـو صاحب نص مضيء ورد فـي مقالته «الشكوك على بطليموس» وجاء فيه: **الحقائق منغمسـة في الشبهات. وما عصم الله العلماء من الزلل ولا حمى علمهم من التقصير والخلـل، ولو كان ذلك لما اختلف العلماء في شيء من العلوم، ولا تفرقت آراؤهم في شيء من حقائق الأمور والوجود.**

أمـا القول المركزي في الشك، فيوضحه ابن الهيثم، كما لا يوضحه كثير من الفلاسفة غيره بعبارة بالغة القيمة في فكره، إذ يقول: «**طالب الحق ليس هو الناظر في كتب المتقدمين المسترسـل مع طبعه، في**

«بـل طالـب الحق هو المتهم لظنه فيهم... والواجـب علـى الناظر في كتب العلـوم، إذا كان غرضــه معرفـة الحقائــق، أن يجعــل نفســه خصما لكل ما ينظـر فيه...فإنه إذا ســلك هذه الطريقة انكشفت له الحقائق...»

ابن الهيثم

من هو من؟

هذا العنوان هو الترجمة الحرفية للسؤال بالإنجليزية «who's who» الذي يعني في ترجمة أصح «أيهم؟».
والسؤال هو اسم كتاب يصدر بالإنجليزية سنوياً منذ أكثر من قرن ونصف، ويتضمن تعريفاً بالشخصيّات المشهورة في كل المجالات والتي لا تزال على قيد الحياة.
فقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في بريطانيا عام 1849. وجاءت إضافة من 35 صفحة على كتاب الأحداث السنوية، وتضمنت تعداداً لأفراد الأسرة المالكة وأعضاء مجلس اللوردات ومجلس العموم والسفراء.
وفي العام 1896، استحوذت شركة «آي أند سي بلاك» على حقوق نشر هذا الكتاب وأدخلت عليه تعديلات جذرية فصار يشمل الشخصيات غير الرسمية، وأضيف على كل اسم نبذة عن سيرته الشخصية.
تعاظمت أهمية هذا الكتاب في القرن العشرين، حتى صار محتواه يعبر عن التحولات الاجتماعية التي تطرأ على الحياة العامة. ويقال إن رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل تدخّل شخصياً خلال الحرب العالمية الثانية، ليضمن طباعة هذا الكتاب في موعده رغم أزمة الورق الشديدة آنذاك.
وشهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين انتشار طباعة هذا الكتاب بمحتويات خاصة ببلدان ومناطق أخرى غير بريطانيا، فصار هناك كتاب خاص بأمريكا، وآخر بالشرق الأوسط وثالث بالهند... وهكذا دواليك.
ومنذ عام 2005، صارت محتويات موسوعة الشخصيّات هذه متوافرة على شبكة الإنترنت. وهي لا تزال تعتبر، عالمياً، مرجعاً موثوقاً وموضوعياً بسير الشخصيات التي تتضمنها.

حسـن الظـن بهم». طالب الحق عنـده إذن لا بد له مـن الشك. ويتابع العبـارة المركزية بالقول: «**بـل طالب الحق هو المتهم لظنه فيهم، المتوقـف فيما يفهمـه عنهم المتبع الحجـة والبرهان لا قول القائـل، الذي هو إنسـان مخصـوص في جبلته بضـروب الخلل والنقصـان. والواجـب علـى الناظـر في كتـب العلـوم، إذا كان غرضـه معرفة الحقائق، أن يجعل نفسـه خصـماً لكل ما ينظر فيـه، ويحيل فكـره في جميع حواشـيه، ويخصـمه مـن جميع جهاته ونواصـيه، ويتهم أيضا نفسه عند خصـامه... فإنه إذا سلك هذه الطريقة انكشفت له الحقائق»**.
واستفـادت الفلسفة في أوروبا الحديثة كثيراً من أعمال الفلاسفة العرب والمسلميـن في اعتمـاد الشك مبدأ لبلـوغ اليقين. ومن أبـرز المفكرين الذيـن بحثوا في الشك ومجالات اللجوء إليه، حتى بنوا على هذه المسألة فلسفاتهـم لبنـةً لبنـة، الفرنسي رينيه ديـكارت والإنجليـزي جون لوك، والنمساوي كارل بوبر وغيرهم.
ولـم يقتصر اعتمـاد الشك والسؤال فـي أساس النظرة إلـى الأمور على المؤلفات الفلسفية. ذلك أن ابن خلدون، اتبع منهج الشك أيضاً في كتابة التاريـخ الذي كانـت ذروته في المقدمة المشهورة التـي أسست لعدد من العلـوم، منها بالطبع علم الاجتمـاع وفلسفة التاريـخ، وكذلك علم النقد التاريخي الـذي طوّره فيما بعد في أوروبا فكتور لانجلوا وشارل سنيوبوس وغيرهمـا. وهو علـم لا يقبل الرواية التاريخيـة، إلاّ بعد الشك فيها وبناء اليقين على أساس نقد المصدر لمعرفة خطه من استحقاق الثقة، ثم نقد الروايـة نفسها لمعرفة حظها من الصحة والدقة، والمقارنة مع الروايات الأخرى لمحاولة إكمال تفاصيل الصورة، وما إلى ذلك من أساليب إعمال الشك والسؤال، وعدم قبول ما يتوارث من روايات من دون نقاش.
أما العلوم الدقيقة مثل الرياضيات والفيزياء والكيمياء فيخطئ من يتصور أن حقائقهـا بمنأى عن الشك والسـؤال. فقد شهد القرن العشرون ظهور حشد من العلماء الذين شككوا فيما هو متعارف عليه في كثير من العلوم، ونقضـوا قوانين الرياضيّات والفيزياء التي عاشـت قروناً (ومن أبرزهم ألبرت أينشتين صاحب نظرية النسبية المشهورة). وعلى أيدي هؤلاء، قام تطور العلم خلال القرن الميلادي الماضي، وما زال يتطور حتى اليوم.

مهن وأعمال قائمة على فن السؤال

إضافة إلى الأسئلة المتداولة في الحياة اليومية، يدخل «السؤال» في صلب الأسس التي تقوم عليها مهن وأعمال ومهام وأبواب تخصص عديدة، حيث تصبح صياغة السؤال وطرحه فناً وعلماً، يتوقف عليه النجاح أو الفشل في العمل. ومن أبرز الأمثلة التي يعرفها الجميع ويمكننا أن نذكرها في هذا الإطار: التحقيق الأمني والقضائي.

الاستجواب الأمني والقضائي

كلنا نعرف الأسئلة النموذجية التي تتكرر في كل فلم بوليسي يدور حول البحث عن مجرم ارتكب جناية قتل مثلاً. فالحوار بين المحقق الباحث عن الحقيقة والمتهم غالباً ما يقتصر على جملة أسئلة نعرفها كلنا غيباً:

أين كنت في الساعة الفلانية؟

هل هناك من يستطيع أن يؤكد كلامك؟

ما مدى معرفتك بالضحية؟

هل تمتلك سلاحاً

من أين أتت نقطة الدم على ملابسك؟

متى كان آخر اتصال لك بالضحية...؟ وهكذا.

ومن جملة الأجوبة التي يحصل عليها المحقق عليه أن يضع تصوراً مؤكداً، أو ترجيحاً لأجوبة فئة أخرى من الأسئلة لكي يتبلور الاتهام: من الذي ارتكب الجريمة، ولماذا (الدافع)، وبأي وسيلة، ومتى، وأين، وكيف. أي بالاعتماد على أسئلة شيشرون (راجع الإطار).

غير أن هناك نمطاً من طرح أسئلة التحقيق نادراً ما نراه في الأفلام البوليسية، وكثيراً ما يلجأ إليه المحققون في الجرائم الكبرى. ويقضي هذا النمط أن يصوغ المحقق أسئلة توحي للمتهم بأن موضوع الاستجواب هو جريمة غير الجريمة الحقيقية التي حصلت. الأمر الذي يجعل المتهم يرد بصدق وراحة نسبية. ليستشف المحقق منها ما يعزز الشبهات على المتهم أو ينفيها.

وسوق المتهم أمام القضاء، يتخذ فن اختيار السؤال وطرحه مسألة يرتبط بها الحكم بالتبرئة أو التجريم. إذ يتناوب على استجوابه محامي الدفاع وممثل الادعاء، كذلك يتناوب الطرفان على استجواب الشهود، وفق تقاليد محددة بدقة. ويتمتع القاضي بصلاحية منع طرح سؤال معين إذا ارتأى أن طرحه قد ينحرف بالحقيقة أو العدالة عن مسارها. وبشكل عام، فإن براعة المحامين وشهرتهم ترتبط بالدرجة الأولى بتمكنهم من فن طرح السؤال. هذا الفن القادر على تبرئة البريء فعلاً، وإرسال المجرم إلى ملاقاة جزائه. كذلك يمكن أن يؤدي سوء طرح الأسئلة إلى نتيجة معاكسة.

أسئلة الصحافة

وكما الحال عند المحامي والمحقق البوليسي، يعد فن طرح السؤال علماً لا بد للصحافي أن يتقنه كي ينجح في عمله.

فإضافة إلى الأسئلة الكثيرة التي تسبق أو ترافق كل ما ينتجه الصحافي، هناك مجالان يظهر فيهما فن السؤال بوضوح: المقابلة الصحافية، والمشاركة في مؤتمر صحافي.

فالغاية الأساس في هذين المجالين هي حصول الصحافي من خلال أسئلته من الشخص الذي يحاوره، على معلومات لا يعرفها جمهور القراء أو المشاهدين، ولا الصحافي نفسه. وتحقيق الأمر يتطلب إضافة إلى الإطلاع المسبق على جوانب الموضوع المطروح على البحث، براعته في صياغة السؤال (وأدباً في طرحه)، وقدرة على تقييم الجواب لمعرفة ما إذا كان يستدعي التوضيح من خلال سؤال مستمد منه قبل الانتقال إلى السؤال التالي..

والحقيقة أن التفاصيل المتعلقة بأسئلة المقابلة الصحافية هي أكثر من أن نتمكن من حصرها هنا، إذ إنها مادة دراسة في كليات الإعلام. ولكن يكفي أن نشير إلى أن التعبير على وجه الصحافي السائل (إذا كان مصوراً) يمكنه كما هو حال اختيار مفردات السؤال أن يذهب بقيمة السؤال في شتى الاتجاهات، إذ يمكنه أن يعطي انطباعاً بالجدية والرصانة، أو يفضح تواطؤه مع الشخص الذي يحاوره على طمس الحقيقة.



المسؤولية والتبعة

أخذ الصحافيون في وسائل الإعلام، منذ بداية ظهور الصحف العربية، في أواخر القرن الميلادي التاسع عشر، يستخدمون كلمة: المسؤولية، وهم يقصدون ما يترتب على المرء من عواقب أفعاله. والكلمة مشتقة من السؤال، وهي إذن عربية المصدر، لكنها ليست عربية سليمة الاشتقاق، لأن الكلمة نسبة، وهي تستخدم بمثابة مصدر. وهذا لا يجوز. وأصل الاستخدام الخطأ هذا، بدعة لغوية من أيام السلطنة العثمانية، كانت من بدع لغوية كثيرة كان يبتدعها الأتراك في كلامهم العربي، فشاعت. ومثلها كلمات: العدلية والحقانية والحربية والمالية والاستمرارية والاستقلالية، وما إلى ذلك من نسب، لا تُستخدم صفات، بل مصادر.

أما المعنى المقصود بكلمة مسؤولية، فالكلمة العربية الأصيلة فيه هي: التَّبِعة.

شكلها وخطابها في الكاريكاتير

تفرض علامة الاستفهام نفسها على فن الكاريكاتير، يساعدها في ذلك عدد من العوامل الشكلية والضمنية، نذكر منها ما يأتي:

1 - بساطة الشكل الذي تسهل قراءته وكأنه حرف أبجدي.

2 - خصوصية الشكل المؤلف من جزأين (قوس ونقطة)

3 - تعبيرها بحد ذاتها عن غياب الجواب عن السؤال، ورمزيتها للجهل والحيرة والشك (وهي صفات غالية على قلوب الساخرين من الرسامين).

وفي هذه العينة المختارة من الرسوم، يمكننا أن نقرأ عدداً محدوداً من أنماط ظهور علامة الاستفهام في هذا الفن.

1 - «سوق الأسهم»: تؤدي علامة الاستفهام دورها التقليدي هنا من خلال ظهورها على شكل لوحة في متحف، لتعبر بشكل واضح عن الغموض الذي يحيط باتجاهات الحركة في سوق الأسهم (التي يبدو أنها تحير الناس في الغرب كما هو الحال عندنا).

2 - «صور علامة الاستفهام»: على الرغم من بساطة شكلها، يؤدي رسم علامة الاستفهام بشكل لوحة زيتية تحمل اسمها، إلى أداء الوظيفة المحددة لفن اللوحة، فينعكس موضوعها سؤالاً واضحاً على وجه المتطلعين إليها.

3 - «خداع بصري»: يستغل هذا الرسام شكل علامة الاستفهام لتقديم صورة سوريالية، نرى فيها القوس المنحوت من حجر عالقاً في الهواء، وتحته النقطة فقط ملتصقة بالصخر على الأرض.

4 - «الحزم»: كما هو حال الرسم السابق، يستغل الرسام هنا شكل علامة الاستفهام، ولكن للإدلاء بخطاب يتجاوز اللعبة البصرية. فالشخص الحازم يجلس هنا بين القوس والنقطة، أي أنه بادعائه لنفسه الحزم واليقين، يجب عليه أن يعلم أن هذا الحزم هو أصغر من السؤال، وأنه لا يستطيع الإفلات من الشك طالما أنه محتوىً فيه.

5 - «علامة التعجب تطارد علامة الاستفهام»: خطاب كامل وبسيط، يؤكد العلاقة الديناميكية ما بين السؤال من جهة والتعجب أو الدهشة من جهة أخرى. وغالباً ما يكون السؤال الباحث عن جواب نتيجة ضغط عامل التعجب

6 - «الأطباء والمرضى ينحنون أمام الجهل»: يقتصر دور علامة الاستفهام هنا على رمزها للجهل. فتتخذ شكل ملك جالس على كرسي الملك وبيده صولجانه (رمز النفوذ والقوة)، وأمامه مرض (رمز الضعيف)، وطبيب (رمز المتعلم) انبطحا أرضاً تعبيراً عن خضوعهما له.



1




2



3



4



5




6

أنا علامة التعجب

شقيقة علامة الاستفهام التوأم

علامة التعجب، شقيقة علامة الاستفهام، وكثيراً ما تظهران معاً مثل التوائم، لا سيما في الكتابة الأدبية التي تفترض الإعراب عن مشاعر مختلفة.

ولأن علامة التعجب «اختراع» أوروبي، استوردناها مثل كثير من المخترعات الأوروبية، فلا بد من متابعة قصة ولادتها وسيرتها عبر القرون من مصادرها الأوروبية، مسقط رأسها.

بطاقة الهوية:

علامة تعرب عن الانفعال أو الاستغراب أو التعجب في آخر الجملة إجمالاً. وقد تكون ختاماً لعبارة قصيرة: يا سلام! أو نقطة إنهاء لأمر: قف! أو: تعال! أو إعراباً عن تعجب لمضمون الجملة التي سبقت علامة التعجب: لقد وجدوا المال في داخل كيس القمامة! بعض الكتاب يكررونها، لتشديد التعجب أو الاستنكار: لقد كسروا المقاعد في الملعب الرياضي!!!

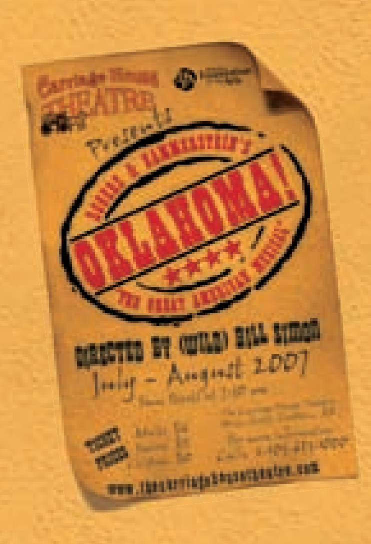
السيرة:

ظهرت علامة التعجب أول ما ظهرت في نصوص إنجليزية، قرابة العام 1400م. أي انها بلغت اليوم عامها الستمئة. لكنها كانت تسمى: علامة الإعجاب، لا التعجب. وظلت على هذه الحال، حتى منتصف القرن السابع عشر. ولم تظهر في اللغة الألمانية حتى أواخر القرن الثامن عشر، سنة 1797م.

غير أن الآلات الكاتبة لم تعترف بها إلا في سبعينيات القرن الميلادي العشرين، حين درجت على لوحات مفاتيحها، وصار بإمكان الطابع أن يكتبها في النصوص. وكانوا من قبل يطبعون نقطة، وقبلها فاصلة مقلوبة (’.).

واستخدمت شركات علامة التعجب في علاماتها التجارية، وظهرت نقطة التعجب أيضاً في عناوين مسرحيات في الغرب، مثل: Oklahoma!، أو Oh! Calcutta!. بل ان في بريطانيا مدينة اسمها الرسمي: Westward Ho!، وفي كندا في مقاطعة كيبك، مدينة اسمها الرسمي: Saint-Louis-du-Ha! Ha!.





واستعـار عـدد من اللغات علامــة التعجب من الأوروبييــن، منها العربية والصينيــة والكورية واليابانية. وفي الفرنسية يستخدمون علامة التعجب للِّحـاق بفعل الأمـر: (تعال !) ويسبقهـا فاصل، يبعدها عـن الكلمة التي قبلهـا. ولا يستخـدم الإنجليز علامة التعجب لهذا الغرض. أما الألمان، فيستخدمونهـا بعد ذكر اسم المخاطَـب في الرسالة (عزيـزي يورغ!). كذلـك يستخدمها الألمان في اللافتات: (ممنوع التدخين!) أو بعد جملة تعـرب عن طلـب: (تعالَ فـي الصباح!). أمــا الإسبــان فيضعون علامة التعجـب مقلوبة في أول الجملة التي تنتهـي بعلامة التعجب، تماماً مثلما يفعلون بعلامة الاستفهام.



وتوسع استخـدام علامة التعجب في كثير من النصوص العلمية والتقنية في علم الصوت واللغــة الإلكترونية وإشارات السير، لا سيما التي تنطوي على تنبيه من خطر ما. ولعلامة التعجب معنى مخصوص في الرياضيات، حين تستخدم بعد رقم ما، أو في الحواسيب.

فــي الموسيقــى، اتخذت فرقة مقرهــا ساكرامنتو، فــي كاليفورنيا ثلاث علامــات تعجب !!! اسماً لها. وأمــا لفظ هذا الاسم، فاتُّفق على أن يكون: تشيـك تشيك تشيك، أو: بو بو بو، أو: بَنْــج بَنْج بَنْج، تقليداً للصوت الذي يصدر عن الآلة الكاتبة حين نطبع علامة الاستفهام ثلاث مرات متتالية. بل ان ثمة أغنية أمريكية سميت: !، ويَلفظ المستمعون اسمها: بنج.

وظهرت علامة الاستفهام في كثير من الرسوم الكاريكاتورية، وفي أفلام الرسوم المتحركة، للإعراب عــن استنكار أو استغراب أو عن صداع بعد ضربة على الرأس أو ما شابه. وفي الشطرنج، تعبِّر علامة التعجب ! في أدبيات اللعبة عن تحريك جيــد، والعلامتان !! عن تحريك ممتاز. كذلك في أدبيات لعبة البيزبول، حين يصفون لعبة دفاعية جيدة.

أمــا وضع علامة التعجب بين هلاليــن (!)، فغالباً ما يعبِّر عن استهجان أو تهكم.

لكن أغرب ما في سيرة هذه العلامة، أن الأبحاث أثبتت أن المرأة تستخدم علامة التعجب أكثر بكثير من الرجل. فهل لهذا الأمر علاقة بصفة علامة التعجب ووظيفتها، وسيلة للإعراب عن المشاعر على اختلافها؟

علامة استفهام!




وأخيراً...؟
Ah, Sweet Mouse Story Of Life
TOM and JERRY

القافلة
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
مايو - يونيو 2008
المجلد 57 العدد 3

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com

